الجـــانب الإنســـاني في شـعر مـعروف الرصـــافي

بحث من إعداد

د / جمال عبد النبي محمد حسانين

مدرس الأدب والنقد في الكلية

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله حمدا يليق بجلاله وكماله ، ونصلي ونسلم على خاتم رسله وأنبيائه سيدنا " محمد" صاحب الكمال الإنساني الأتم ، ومن أخذت عنه الدنيا إنسانيته العالية ، وأخلاقه السامية ، فكانت برهانا على كمال دعوته ، وصدق رسالته ، عليه وعلى آله وصحبه ، ومن سار على دربه ، واقتفى أثره وتمسك بسنته وتعاليمه أفضل الصلاة وأتم السلام .

وبعد .....

فقد ظل "الرصافي" حقبة طويلة من عمره يضرب على أوتار قيثارته بما يجيش في صدره من حس صادق تجاه مجتمعه ، فقد أهمه المجتمع الذي يحيا بين جنباته ويعيش بين ظهرانيه ، فهتف بأسباب رقيه ، وأشاد بعوامل ارتقائه ، وبكى ما يجد من تعاسته وشقائه وكان عامر القلب بالود والتراحم ، شديد التجاوب مع مشكلات الشعب وآلامه.

وقد سخر فكره وقلمه ؛ لخدمة أمته ، فقد هاله ما رأى من جهل متفش وظلم مطبق وتخلف ، وجمود ، فنادى بالحرية ، ودعا إلى التعاون والتراحم ، وتطرق لقضايا الجهل والفقر والمرض ، وتناول مشكلات الطلاق والأرامل والأيتام ، وغيرها وفوق ذلك نادى بالعدالة والمساواة وألح على طلب الحرية باعتبارها الظاهرة الإنسانية الأولى في حياة المجتمعات والأفراد وكان ارتباطه بقضايا مجتمعه على هذا النحو ارتباط الروح بالبدن وشغل المجتمع جانبا كبيرا من ديوانه فكان قسم الاجتماعيات هو أضخم الأقسام وأهمها فيه وقد أسفر هذا الارتباط الوثيق بين الشاعر ومجتمعه عن مشاعر إنسانية فياضة تشف عن شعور عميق ، وتترجم عن عواطف مشبوبة جعلت منه أبرع مصور لبؤس الأمة ومآسيها ، وأصدق معبر عن آلام الشعب وأحزانه .

وهذا البحث ما هو إلا محاولة نطل منها على الجانب الإنساني عند "الرصافي" ونستشف منها الدوافع التي بلورت فيه تلك النزعة التي ميزته بين سائر شعراء عصره وجعلته من أبرز المناضلين عن المجتمع وقضاياه الإنسانية والمنافحين عن همومه وبخاصة ونحن في عصر تكاد الفضائل الإنسانية فيه تتوارى ومعانيها النبيلة تتلاشى وعباراتها الرقيقة توشك أن تلحق بالألفاظ التاريخية التي تشير فقط إلى ما كان في الماضي

فضلا عن جلاء تلك الغلالة الرقيقة التي يستتر خلفها شاعر العراق الكبير"معروف الرصافي " الذي لم يعرفه الناس في مصر إلا من خلال بعض مختارات في الكتب الدراسية لا تكفي للتعرف الحقيقي عليه ٠

وفي سبيل الوصول لهذه الغايات تضمن هذا البحث النقاط الآتية :

أولا : الرصافي في دائرة الضوء ٠

ثانيا : الجانب الإنساني مفهومه وغايته ٠

ثالثا : روافد الجانب الإنساني عند الرصافي ٠

رابعا : مظاهر إنسانيته ٠

خامسا : حدودها ٠

سادسا : الجانب الفني في الشعر الإنساني ٠

ثم خاتمة بأهم نتائج البحث ، وقائمة بالمصادر والمراجع والله يقول الحق وهو يهدي السبيل ٠

أولا : الرصافي في دائرة الضوء :

مولده ونسبه :

الرّصافي [١] هو معروف بن عبد الغني بن محمود الرصافي ، ولد ببغداد ونشأ بها وتحديدا في " الرصافة " عام ١٢٩٢ هـ الموافق لعام ١٨٧٥ م – أبوه " عبد الغني بن محمود الرصافي " ينتسب إلى العشيرة الجبارية التي شهرت بكرديتها ، وأمه " فاطمة بنت جاسم" عربية من عشيرة "القراغول" من أسرة متوسطة الحال ولكنها عريقة الأصل والنسب . [٢]

ولد " الرصافي"لأبوين فقيرين ، وشب كالأيتام ؛ إذ لم يكن يرى والده إلا قليلا ؛ لكثرة أسفاره ، وتغيبه عن البيت ، إذ كان يعمل جنديا في شرطة الأرياف بعيدا عن مدينة بغداد [٣] مما أضعف الأثر الأبوي في نفسه ، فاتجهت عاطفته صوب جده لأمه "جاسم" وتعلق بأمه التي قامت على رعايته وكانت مرجعا إليه في كل شئونه . [٤]

نشأته

نشأ "الرصافي" نشأة المعاناة والحرمان ، وعاش يقاسي آلام الفقر أيام طلب العلم مما اضطره للبحث عن مورد يدر عليه المال ، فاشتغل بالتدريس وكان لضيق ذات يده وعسره يشعر بالحرج حين يختلط بذوي اليسار من الناس ، فقنع بالقليل ، ورضي بالكفاف

---

(١) الرصافي نسبة إلى الرصافة ، وأول من سماه الرصافي أستاذه / السيد محمود شكري الألوسي وذلك بعد أن قدم الرصافي لكتاب "بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب" وصدره ببعض الأبيات وكتب تحتها " معروف " فلما شاهد الألوسي ذلك أعجب به إعجابا ، وقال : اكتب بعد اسمك الرصافي لأنك معروف الرصافة ، والكرخي معروف الكرخ ، ينظر الرصافي يروي سيرة حياته د / يوسف عز الدين صـ ١٠ ط ١ دار المدى للثقافة والنشر ٢٠٠٤ م .

(٢) الأعلام لخير الدين الزركلي جـ ٧ صـ ٢٦٨ ط ٨ دار العلم للملايين بيروت لبنان ١٩٨٩ .

(٣) لم يكن يقضي أوقاته في بغداد إلا نادرا إذ كان عريفا في الجند ، واشترك مع العثمانيين في حربهم ضد الروس فلما رجع خرج من الجندية إلى الدرك ، ثم انتقل عريفا إلى قسم البغالة فقضى معظم العمر في الأسفار وقلما وجد في بغداد ولذلك فصلة الرصافي بأبيه كانت غير وثيقة . ينظر معروف االرصافي حياته وبيئته وشعره د / بدوي طبانة صـ ٣٦ ٣٧ ط ٢ مكتبة الأنجلو المصرية ١٣٧٦ هـ ١٩٥٧ م

(٤) معروف الرصافي شاعر الحرية والعروبة د / الحسيني هاشم صـ ١٧ طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٦ م .

فقال :- [1] **وأقنع بالقوت الزهيد لطيبه حذار وقوعي في خبيث المطاعم**
وأترك ما قد تشتهي النفس نيله لما تشتهيه قلة في دراهمي

مؤثرا الطوى على المذلة ، و الجوع على الهوان ؛ إكراما لنفسه ، وصونا لها عن الابتذال فحق له أن يقول :- [2]

العز أعظم للإنسان من شبع والذل أقتل من جوع لجوعان
فالذل يقتل نفسا منه باقية والجوع يقتل منه جسمه الفاني

ثقافته .

كانت ثقافته عربية خالصة ، تعلم مبادئ العلم ، وحفظ القرآن الكريم ثم التحق بالمدرسة "الرشيدية"العسكرية لكن لصعوبة الدراسة فيها ، ونظامها الصارم نفر منها عند أول رسوب له ، فاتجه إلى التعليم الحر، في مدرسة أستاذه " محمود شكري الألوسي" صاحب " بلوغ الأرب" ولازمه فيها أكثر من اثنتي عشرة سنة ، وكان فيها الطالب المتعطش إلى المعرفة الساعي للتحصيل العلمي الواسع ، وكان العلماء يومئذ قادة التعليم ومنهم كانت تؤخذ الإجازات العلمية ، فتخرج على يد أستاذه"الألوسي" وعمل في حقله مدرسا ، وكان نعم التلميذ نجابة وإخلاصا [3] وقد عبر عن وفائه لأستاذه بعد وفاته فرثاه بقصيدته "واشيخاه" التي يقول في مطلعها :-

أزمعت عنا إلى مولاك ترحالا لما رأيت مناخ القوم أوحالا

وفيها أظهر فضله على العلم والأدب مما ينم عن وفائه وحبه الصادق له كما تتلمذ على يد الشيخ "قاسم القيسي " الذي قرأ عليه كتاب "الهداية" في الفقه الحنفي .[4]

طباعه وأخلاقه .

كان " الرصافي" حاد الطباع ، عصبي المزاج ، سريع التأثر لا بد لمن يعاشره كما يقول صديقه

(١) ديوان الرصافي شرح وتصحيح د / مصطفى السقا جـ١صـ٤٥ ط ٥ الهيئة العامة لقصور الثقافة د / ت

(٢) السابق جـ ١صـ ١٧٥ .

(٣) ينظر الأعلام للزركلي جـ٧صـ ٢٦ والموجز في الأدب العربي وتاريخه ا/ حنا الفاخوري ج٤ صـ٥٧٤ طبع دار الجيل بيروت

(٤) ينظر الرصافي يروي سيرة حياته د /بدوي طبانة صـ ٤٣ .

"خالد حافظ" أن يبتعد عما يغضبه ، أويثير حفيظته وأنه ما عدا ذلك فهو في غاية الرقة ، وحسن المعاشرة ، وخفة الروح ، ومحبة الصديق ، كما كان رءوفا بالفقراء محبا للخير ، أبيا لا يقبل الضيم، يفضل الحرمان على العافية ، تهزه المفارقات وتؤثر فيه المواقف ، وبخاصة فيما يتصل منها بالإنسان ويكون الموقف مما يكشف عن شقاء البائسين أو نكبات المنكوبين ، كان لسان العصر الذي عاش فيه وصوت الشعب الذي أنجبه ، يفدي الوطن ، ويتألم لحاله ، ويقارع لأجله البغاة والطغاة من الحكام الجائرين بلا لين ولا هوادة كانت الثقة في من يحب من أبرز صفاته[1] تملأ معاني الرحمة قلبه حتى غدا لفظه عاجزا عن تبيان ما تحمله نفسه من معان إنسانية تجاه شعبه وأمته، كما جاء على لسانه :- [2]

ما كل مشعور به في نفوسنا قدير على إيضاحه المنطق الحر
ففي النفس ما أعيا العبارة كشفه وقصر عن تبيانه النظم والنثر
ومن خطرات النفس ما لم يقم به بيان ولم ينهض بأعبائه الشعر

شكواه

عاش "الرصافي" حياة الفقر والحرمان ، وكان في طليعة الشعراء الذين عانوا شظف العيش ، ورقة الحال ، وتنكر الأخوان ، واستبداد الحكام مما جعله أكثر إحساسا بآلام مجتمعه ، وبالمآسي التي تعانيها الطبقة الفقيرة من أبناء شعبه ، كما شكا شكوى مريرة من تردي حال الأمة، وما رآه من أثر الذل والضيم في المجتمع [3]

لذلك كثر شعر الشكوى عنده ، فقضى حياته يتألم لحال الوطن ، ينتقده ويتوجع لمصابه تارة ويأسى لحال البؤساء والبائسين من أبنائه تارة أخرى ، يرسم صورا لواقعهم الأليم من الفقر والبؤس ، والمرض ، وكانت بواعث هذه الشكوى هي رقة العاطفة ، وحدة الإحساس

(١) ينظر الرصافي حياته وبيئته وشعره د / بدوي طبانة صـ ٧٠ ، ٧١ .

(٢) ديوان الرصافي جـ ١ صـ ١٨٤ .

(٣) ينظر الشعر العراقي أهدافه وخصائصه في القرن التاسع عشر د / يوسف عز الدين صـ ١٤٩ الدار القومية للطباعة والنشر ١٣٨٥ هـ٦٥ ١٩م .

ونشدان المثل العليا لنفسه ولمجتمعه ، يقول شاكيا ونادبا حاله وهموم وطنه :- [1]

يا قوم إني من الدنيا ضحيتكم فقربوا من حياتي كل قربان
لا تحسبوني منكم جازعا ضجرا وإن يكن شظفي في العيش أضواني
إني ألفت على الأيام مخمصتي فالنعم والبؤس عندي اليوم سيان

إخفاقه في سعيه

لم ينل "الرصافي" ما كان يطمح إليه من حياة حرة كريمة ، ومن وظيفة مرموقة تعادل مكانته الأدبية الكبيرة ، فأحس بالظلم الكبير في الحياة ، والتجاهل في الحصول على العمل الذي يتناسب مع قدره ، فاضطربت حياته ، واهتزت آماله ، وقاسى نفسيا ، وتألم روحيا ، وأهمل وأصبح لا مكان له بين رجالات الدولة ، فقال يخاطب القائمين على الأمر في عتاب ناعم رقيق ، عله يظفر بشيء مما كان يطمح إليه :- (٢)

يا مبعدي بظلم عن مناصبهم وقاطعي إلى ما ابتغي طرقي
ماذا يوافقكم من شأن صاحبكم حتى يكون لديكم فائز السبق ؟
إن كان عقل فإني عاقل فطن أو كان حمق فإني أحمق الحمق
فجربوني تفوزوا عند تجربتي بما تريدون من طيشي ومن حمقي

موقفه من ولاة الأمر ٠

تميز"الرصافي" على نظرائه بالصراحة الجريئة ، والاستهتار البالغ ، فقد كان يعيش ليومه وينطلق على سجيته ، ويخضع لغريزته ، فيفعل ما يشاء ويقول ما يعتقد ويطلب ما يشتهي ، ثم لا يبالي أين يقع ذلك كله من رأي غيره (٣) لنستمع إليه معبرا عن ذاته ، ومعتدا بجرأته وصراحته :- (٤)

أحب صراحتي قولا وفعلا وأكره أن أميل إلى الرياء

---

(١) ديوان الرصافي جـ ١ صـ ١٧٥ ٠ (٢) السابق ٢ / ٥٤١ ٠
(٣) ينظر الرصافي يروي سيرة حياته صـ ٣١٨ ٠ (٤) ديوان الرصافي جـ ١ صـ ١٢٩ ٠

ولست من الذين يرون خيرا بإبقاء الحقيقة في الخفاء

ولا ممن تودد في حضور وعند الغيب جاهر بالعداء

وكان شعلة متحررة ينادي في كل مناسبة بتحرير الشرق ، فلا ضعف ولا استكانة في مواجهة القوى الغاشمة ، ولا مهادنة للحكام الممالئين ، ولا ميل للدعة والسكينة ، ولا خوف ولا تهيب من عاقبة القول ، لنستمع إليه وهو يفصح عن نفسه الأبية ، وطموحه في طلب الحرية ، الذي بلغ كل غاية وفاق كل حد : – [1]

أحريتي إني اتخذتك قبلة أوجه وجهي كل يوم لها عشرا

إن كنت في قفر تخذتك مؤنسا وإن كنت في ليل جعلتك لي بدرا

أثره في المجتمع ٠

ترك " الرصافي " في المجتمع من حوله أثرا كبيرا ، وصدى عميقا إذ تمكن بعمق إنسانيته من رسم الصورة الواقعية لحياة المجتمع العراقي وصور معاناته ، وهزت قصائده مشاعر العراقيين(وكان همه الأول أن يوقظ الناس من غفلتهم فيتطلعوا إلى الوجود تطلع أحياء ويخرجوا من الجمود إلى الحركة ومن الخمول إلى العمل الذي ينفع ويرفع) [2]

لا يختلف عليه اثنان في إحلاله منزلته من حيث تسجيله لأحداث عصره التي اصطدمت، والمشاعر التي اضطرمت في نفوس العراقيين ، والعرب جميعا في هذا العصر الزاخر بالحوادث والأحداث ، وكان بحق مجموعة طريفة من العقل والأدب والذوق والذكاء وهو من أثمن ذخائر العراق ، أحسن العناية بمصالح الأمة ، ودعا وناضل من أجل الحريات وندد بمساوئ القهر والاستبداد [3] ٠

لم يكن شعره شاهدا على عصره المفعم بالصراع والأحداث المثيرة في العراق والوطن العربي كله فحسب ، بل كان دليلا على وعي صاحبه بأساليب الاستعمار وروحا

(١) ديوان الرصافي جـ ١ صـ ٥٢ ٠

(٢) الموجز في الأدب العربي وتاريخه صـ ٥٧٤ ٠

(٣) ينظر الرصافي يروي سيرة حياته صـ ٢٧٨ ٠

وثابة لاستنهاض قومه وبعث الحماسة في نفوسهم يحدد لهم موطن الداء ويضع لهم سبل العلاج بأن الجهل والضعف هما أس الداء ، والعلم والقوة هما صميم الدواء ، يقول :– [1]

إذا ما عق موطنهم أناس ولم يبنوا به للعلم دورا

فإن ثيابهم أكفان موتى وليس بيوتهم إلا قبورا

وأخيرا كان "الرصافي" يمثل في العراق نفس الدور الذي يمثله "حافظ إبراهيم" في مصر، فكلاهما شاعر اجتماعي ، وكلاهما صورة لشعبه بيقظته وإنسانيته وكلاهما استمد من الروح الإنسانية عطفا على الفقراء والمعوزين ، وكلاهما أخلص لأمته إخلاص الدعاة الورعين ، وإن كان وصف " الرصافي" للبؤس والبؤساء منقطع النظير ولذا لم يكن عجبا أن يموت " الرصافي" وقد أتيحت له فرص عديدة للثراء دون أن يقتني منزلا يسكنه ، أو يترك كفافا من المال لذوي قرابته، ولم يفعل "حافظ" مثل ذلك، بل نشأ كلاهما وعاش ، ومات فقيرا، يقول "عبد الكريم العلاف" واصفا عدمه ، ومؤرخا لموته :-[٢]

أمثل الشاعر المعروف يبقى رهين البيت في عيش كفاف
فقم واندب مآثره وأرخ بعدم مات معروف الرصافي ١٣٦٥ هـ

وفاته :

بلغ "الرصافي" السبعين من عمره وقد أصيب "بذات الرئة"فلم يستطع مصارعة المرض كما صارع أحداث الحياة فلقي ربه صباح يوم الجمعة السادس عشر من مارس سنة ١٩٥٤ م بعد أن أعلن نبأ وفاته في الإذاعة العراقية وقبل أن يتمكن الكثير من أتباعه ومحبيه من تشييع جثمانه سار نعشه في موكب متواضع لا يخفه إلا أخلص خلصائه وأوفيائه[٣] وقد رثاه كثير من الشعراء ونعوه منهم الشاعر"محمد صالح بحر" العلوم الذي قال فيه :- [٤]

أشاعر هذا النيل أيتمت أمة بغير افتقاد الحر لم تتيتم
تحررت من قيد الحياة وعفتها لرهط بلا قلب يعيش ولا فم

---

(١) ديوان الرصافي صـ ٥٢ ، ٥٣ .
(٢) مقدمة ديوان الرصافي .
(٣) ينظر الرصافي بين الأصالة والمعاصرة صـ ٥٠ .
(٤) الرصافي صلتي به ١ / مصطفى علي صـ ٣٤ .

الجانب الإنساني :

مفهومه وغايته

جاء في لسان العرب "لابن منظور الإنْس : جماعة الناس ، والأَنَس والأُنْس والإنْس : الطمأنينة [1] والإنسانية : ما اختص به الإنسان من المحامد من نحو المروءة والوفاء والجود ، وكرم الأخلاق والطباع [2]

وهي مصدر صناعي من كلمة إنسان ، لم تعرف في عصرنا الحاضر إلا بعد أن اتصلنا بالمعارف الإنسانية واقتبسنا من علومها وآدابها وفنونها ، وشاع استعمالها كثيرا في أدبنا المعاصر بعد أن أخذ يهتم بالإنسان وقضياه العادلة ، ووقف بإزاء مشاكل إنسانية مختلفة ، فأخذ شعراؤنا يوجهون إليها نشاطهم الفكري ، فإذا شاعرنا لا يعيش لنفسه وإنما يعيش لمجتمعه ، وقد يمتد بصره فيعيش للإنسانية كلها [3]

وتراثنا القديم مليء بالقيم الإنسانية ، فالمروءة ، والكرم ، والشجاعة ، والوفاء والعفة وإغاثة الملهوف ، وحفظ الجوار[4] كلها قيم متأصلة وكامنة في تراثنا العربي القديم

ونقصد بالجانب الإنساني هنا ما يقوله الشاعر في زمنه ويتماشى مع المجتمع الإنساني في كل زمن ، لتوافقه مع الفطرة النقية التي تعلي من كرامة الإنسان ، وتدعو إلى الرفق به ، والعطف عليه ، وتنادي بمبادئ الرحمة ، والتسامح ، والمحبة ، والإخاء البشري وتسمو بكل ما يميز الإنسان، ويتيح الانطلاق لمواهبه [5]

(١) ينظر لسان العرب لجمال الدين بن منظور مادة أنس جـ ٣ صـ ١٥٠ طبع دار المعارف مصر د / ت .

(٢) المنجد في اللغة والأعلام صـ ١٩ طبعة ٣٣ دار الشروق بيروت ١٩٩٢ م .

(٣) ينظر دراسات في الشعر العربي المعاصر د شوقي ضيف صـ ٦٢ طبعة ٨ دار المعارف د / ت .

(٤) يقول عنترة مشيدا بعفته وصيانته لعرض جاره : –

وأغض طرفي ما بدت لي جارتي حتى يواري جارتي مأواها

إني امرؤ سمح الخليقة ماجد لا أتبع النفس اللجوج هواها

شرح ديوان عنترة بن شداد صـ ١٤٥ ، ١٥٥ ، المكتبة الثقافية بيروت ابنان .

(٥) ينظر أدب المهجريين بين أصالة الشرق وفكر الغرب د / نظمي عبد البديع صـ ٥١٨ دار الفكر العربي ١٩٧٦ م .

وكلمة الإنسانية تتردد على الأفواه ، وفي كتابات النقاد غير محدودة الدلالة ولا محصورة الفكرة فقد تدل على كل ما يقترن في أذهاننا بالسمو بالحياة البشرية ، وأن نجتاز كل العقبات التي تقف في طريقها بحيث لا تحدها حواجز من وطن أو جنس أو عصبية وبذلك تصبح الإنسانية نزعة

عالمية يريد أصحابها أن تعم العالم كله روابط واحدة تذوب فيها كل عنصرية وعصبية ويصبح الناس أخوة متحابين متراحمين في نطاق واسع من الإنسانية لا تحده غير الأرض والسماء[1] يقول الرصافي:-[2]

أنا والله لا أريد أن أو ... قع شرا ولو على من يعادي
إن لي إن سمعت أَنة محزو ... ن أنينا مرجعا في فؤادي
إن نفسي عن همها ذات شغل ... بهموم العباد كل العباد
لا أحب النسيم إلا إذا هب ... على كل حاضر أو باد

ومن صميم الإنسانية الرفق بالضعفاء ، ومواساة العاجزين والفقراء ، ودفع الأذى والضر عن البؤساء ، وهذه الفكرة إنما يريد أصحابها أن يرتقوا بحياة البشر فيعم الخير ويسود الوئام ، فلا يكون هناك بؤس ولا بائس ولا حقد ولا حاقد ، وإنما يكون التآزر والتعاون بين الناس جميعا ، كما تدخل فيها محبة الإنسان لوطنه إذ تقوم هذه المحبة في جوهرها على الاعتزاز بالوطن ، وأن تكفل الحرية لسائر أبنائه .[3]

وفي هذا الجانب لا يقف الشاعر عند حدود ذاته ولكنه ينطلق إلى كل ذات يراعي مشاعرها وكرامتها والجانب الإنساني فيها، ويتحقق هذا الجانب بأن يمزج الشاعر بين عاطفته وبين الموضوع الذي يتناوله بأن يضفي عليه طابعا إنسانيا يجعله أقرب إلى النفوس ويحمل النفس على الاستجابة له ، والتعاطف معه [4]

(١) ينظر دراسات في الشعر العربي المعاصر د شوقي ضيف ص ٥٨ .

(٢) ديوان الرصافي جـ ١ ص ١٩ .

(٣) ينظر دراسات في الشعر العربي المعاصر ص ٥٩ .

(٤) الشعر الجاهلي تطوره وخصائصه الفنية د / نبيه زيان ص ١٦٣ دار المعارف القاهرة ١٩٨٢ .

غايته :

أن غاية هذا الجانب هي الإنسان في كل زمان ومكان ، أعني إنسان الحاضر والمستقبل لا إنسان العصر وحده ، أو إنسان المجتمع الضيق أو القومية المحدودة ، وإنما إنسان البشرية الرحبة مما يدل على انفتاح هذا الجانب واتساع آفاقه [١]

وبروز هذا الجانب عند الشاعر دليل راسخ على تحقق الفطرة السوية فيه ، ودليل آخر على وشائج القربى ، وأواصر الرحم الواحدة بين بني الإنسان قال تعال ﴿يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا٠ ٠ ﴾[٢]

ومن هنا تكون الإنسانية عاطفة سامية عامة لا تعرف وطنا ولا جنسا ولا لونا ويدخل تحت لوائها العالم الإنساني كله " وشعرها حينئذ يتصل بالنفوس اتصالا شديدا ويعلق بالأرواح والأفئدة ، ويرتفع بالإنسان إلى آفاق الروح الأعلى " [٣]

ومن غايات هذا الجانب تصوير الواقع الإنساني إذ تتجلى صوره وتستمد مشاهده غالبا من صميم الواقع الاجتماعي ، فالميدان الاجتماعي هو الميدان البارز الذي يصول فيه الشعراء ، ويبرزوا من خلاله هذا الجانب ٠

ومن غايته كذلك إيقاظ النفوس ، فقد لا يستطيع الشاعر وهو إنسان – في المقام الأول– أن يأتي بالخير في كثير من أحواله ، ولكنه وبهذا التجاوب الإنساني قادر على أن يدل عليه، وينوه به ويرغب فيه لتنقيح غريزة الأثرة ، وإماتة حب الذات ، والسمو بالنفس الإنسانية وكسر حدة التعالي والقضاء على الغطرسة الذميمة [٤]

---

(١) ينظر غايات الأدب في مجتمعنا المعاصر د / محمود علي السمان جـ ٢ صـ ١٧٩ طبع الجهاز المركزي للكتب الجامعية والوسائل التعليمية ١٩٨١ م ٠

(٢) سورة الحجرات آية ١٣ ٠

(٣) التجديد في شعر المهجر د / محمد مصطفي هدارة صـ ١٠٨ ط ١ دار الفكر العربي ١٩٥٧ م

(٤) ينظر وحي القلم للرافعي جـ٢ صـ ٣٩ مكتبة الإيمان بالمنصورة د / ت ٠

ثالثا : روافد الجانب الإنساني عنده :

لعلنا لا نجاوز الصواب إذا قلنا إن روافد الجانب الإنساني في حياة "الرصافي" التي هيأته لتلك النزعة ، وصبغت شعره بتلك الصبغة روافد عدة تتجلى فيما يلي :-

١- النشأة :

فمن نشأته التي حرم فيها نعيم القرب بوالده ، الذي لم يكن يراه إلا لماما اتجهت عاطفته صوب أمه ، فاستمد من ضعفها رقة ، ومن حنانها رحمة ، فتوجهت عاطفته نحو كل يتيم ، وقويت صلته بكل بائس ، فرثى لحال اليتامى ، ورق لشكواهم ، وأصغى لأنينهم ووصف حالهم وصف المعايش لبؤسهم ، المطلع على حرمانهم ، فجاء وصفه غاية في الدقة وسمو الإحساس ، فقال في اليتيم وأمه :- [١]

يهز نياط القلب بالحزن صوتها إذا اهتز في جوف الظلام المخيم
لقد جثمت فوق التراب وحولها صغير يرنو لها بعيني ميتم
بكى حولها جوعا فغذته بالبكا وليس البكا إلا تعلة معدم
وأكبر ما يدعو القلوب إلى الأسى بكاء يتيم جائع حول أيم

(لقد نشأ فقيرا حساسا يتجاوب مع مشاعر الآخرين ، يشعر بآلامهم ، ويأسى لأحزانهم ويفرح لفرحهم ، فكان لذلك سريع الاستجابة لكل حدث يمس شغاف قلبه) [٢] وكانت نشأته البائسة ، ومعاناته النفسية والمادية بسبب الضيق المادي والعوز، واختلاطه بالناس من حوله كل ذلك جعله أكثر إحساسا بالمآسي التي تعانيها الطبقة الفقيرة المعدمة ، من الفقراء واليتامى فترجم عنها وعبر عن معاناتها ، ولذا كان في وصف البؤس والبؤساء منقطع القرين ، وفي إثارة الشفقة عليهم لم يشبهه أحد من الشعراء المعروفين [٣]

(١) ديوان الرصافي جـ ١ صـ ٤٠ .
(٢) آفاق الشعر العربي الحديث والمعاصر د / عز الدين إسماعيل صـ ٨٦ دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع ٢٠٠٣ .
(٣) ينظر معروف الرصافي حياته وبيئته وشعره د / بدوي طبانة صـ ٦٠ .

٢- البيئة :

ومن روافد هذا الجانب البيئة التي عاش فيها وشب في أحضانها بما فيها من تفاوت طبقي، وانهيار اجتماعي ، ومظالم ومفاسد فلمس حاجات الأمة بحكم نشأته فيها ، وشاركها مرارة البؤس ، وشاطرها مضاضة الحرمان وراح يطلق من شعره صرخات معبرة عن واقع مجتمعه، من خلال قصائده التي تعد من أروع الشعر في تصوير المآسي الإنسانية [١]

فهو ابن هذه البيئة التي عانت وطأة القهر والبطش لم يعرف الاستقرار طريقه إليها ولا الإصلاح سبيله نحوها ، بل غلب الفساد والاضطراب ، وكانت كل محاولة للإصلاح تبوء بالفشل لأن يد التخريب كانت أقوى من كل يد تريد الإصلاح يقول:- [٢]

إذا ما رأينا واحدا قام بانيا هناك رأينا خلفه ألف هادم

وما جاء فيهم عادل يستميلهم إلى الحق إلا صده ألف ظالم

حيث كان الفساد شاملا ، وبقي العراق بلدا فقيرا يعيش أغلب سكانه عيشة ضنك ، يسودهم الجهل ويعصف بهم الإذلال والقهر [٣] يقول : - [٤]

أيا سائلا عنا ببغداد إننا بهائم في بغداد أعوزها النبت

خضعنا لحكام تجور وقد حلا بأفواههـا مـن مالنـا مـأكل سحت

ويقول متأملا واقع الحياة والأحياء من حوله :- [٥]

تأملت في الأحياء طرا فلم أجد بهم باسما إلا على ألف واجم

ورب سعيد واحد تم سعده بألف شقي في المعيشة راغم

فالبيئة التي عاش فيها هي التي أزكت هذا الجانب في شعره ودعته إلى الاهتمام بشئون من حوله من أبناء طبقته ، واتخذت من شعره منفذا للتعبير عن قضاياهم .

(١) ينظر الشعر العراقي أهدافه وخصائصه في القرن التاسع عشر د / يوسف عز الدين صـ ٢٧ .

(٢) ديوان الرصافي جـ ١ صـ ١٤٥ .

(٣) ينظر معروف الرصافي ا رءوف الواعظ صـ ٣١ دار الكتاب العربي القاهرة د / ت .

(٤) ديوان الرصافي جـ ١ صـ ١٦١ ، ١٦٢ .

(٥) السابق جـ ١ صـ ٧٦ ، ٧٧ .

٣ – الحرمان والإبعاد :

كان "الرصافي" يرى نفسه قطبا من أقطاب بلاده ، خدمها بروحه وفنه، وأتيح له في العهد التركي الوصول إلى ذروة ما يصبو إليه من مكانة وهو تمثيل بلاده في المجلس النيابي التركي، وكان يتوقع في العهد الجديد عهد الحكم الوطني أن يكون من ذوي المراكز المرموقة والمناصب العالية ، فما باله يضن عليه بما لم يضن به على نظرائه ممن لم يبلوا بلاءه ، ولم يجاهدوا جهاده في سبيل الوطن وحريته واستقلاله؟ (١)

فكان حرمانه من الجاه والنفوذ ، وإبعاده عن المكانة التي كان يصبو إليها ، ويرى نفسه جديرا بها ، من الأسباب التي جعلته يشعر بألم كل محروم ، وحزن كل مغبون ، يقول الأستاذ مصطفى علي : (إن الرصافي أسوة في أحرار الفكر الذين قاسوا أصناف العتو والإرهاق ، ومارسوا ضروب العنت والجور) (٢) يحدثنا شاكيا هذا العسف ، ومصرحا بتلك المعاملة المرة الجائرة ، في قصيدته التي سماها " بعد النزوح " فيقول :– (٣)

هي الموطن أدنيها وتقصيني مثل الحوادث أبلوها وتبليني
قد طال شكواي من دهر أكابده أما أصادف حرا فيه يشكيني

وهي قصيدة تفيض لوعة وأسى ، بسبب ما أصابه من غبن وحرمان وإخفاق في الآمال والغايات ، وفيها يواصل شدوه بهذه النغمات التي تثير الحزن والأسى ، فيقول :– (٤)

لقد سقيت بفيض الدمع أربعها على جوانب واد ليس يسقيني
ما كنت أحسب أني مذ بكيت بها قومي بكيت على من سوف يبكيني

فهذا الحرمان الذي عانى منه وجعله يحيا غريبا في بلده ، طريدا في وطنه ، كان رافدا قويا من روافد إنسانيته وباعثا قويا في إحساسه بآلام كل محروم وأحزان كل مغبون فعاش شريدا طريدا لا يجد مأوى يأوي إليه ، ولا إلفا يحنو عليه .

(١) ينظر معروف الرصافي د / بدوي طبانة صـ ١٣٧ .

(٢) أدب الرصافي د / مصطفى علي صـ ٢١ مكتبة المثنى بغداد د / ت .

(٣) ديوان الرصافي جـ ٢ صـ ٤٢٨ .

(٤) السابق صـ ٤٢٩

٤– رقة الشعور :

كان "الرصافي" عميق الإحساس ، رقيق الشعور ، واسع الرحمة ، مثالا في التضحية والإيثار ، يكاد لا يترك منظرا مؤثرا لمنكوب إلا رسمه بريشته رسما حزينا يبعث الشجى في النفوس وكان يعرف كيف يصف ما انطوى عليه قلب المكروب من محن وآلام فجاء شعره يفيض عاطفة ويذوب رقة ، وهو يزجيه قصائد متوجعة كان الإحساس بالألم باعثها الأول ، حتى اعترف هو نفسه بذلك فقال : (إن مشاهد الألم كانت من أشد البواعث عندي إلى نظم الشعر) [١] يقول:[٢]

إن لي إن سمعت أَنة محزو م ن أنينا مرجعا في فؤادي

وكان من طراز خاص عرف كيف يتغنى بكل عمل إنساني وكيف يعبر عن آلام البائسين ، حتى عرف " بشاعر البؤساء " إذ كان كثيرا ما يعرض لهم ، بعاطفة خيرة وروح كريمة حافلة بالعطف والحنان ، وقلب كبير تملأه المحبة لبني الإنسان وعين سخية تذرف الدمع على شقاء البشر[٣] إذ هو القائل :– [٤]

من ليس يبكيه من أبناء جلدته بكاؤهم فهو من جنس التماسيح
ولا يقوم بعبء المجد مضطلعا من لا يقوم إلى إنهاض مفدوح [٥]

وكان من أنصار مذهب " الفن للمجتمع " الذي يجعل للأدب غاية لا بد من تحقيقها ، إذ الإنسان مدني بطبعه لا يمكنه أن يعيش بمعزل عن مجتمعه ، رافضا أن يكون الأدب مجردا من أية غاية يسعى لتحقيقها، وأن يكون الشيء علة لنفسه [٦]

---

(١) دراسات في الشعر العربي المعاصر د / شوقي ضيف صـ ٦٤

(٢) ديوان الرصافي جـ ١ صـ ١٩ ٠

(٣) ينظر الموجز في الأدب العربي وتاريخه ا / حنا الفاخوري جـ ٤ صـ ٥٤٧ ، ٥٣٨ طبع دار الجيل بيروت ٠

(٤) ديوان الرصافي جـ ١ صـ ٢١٦ ٠

(٥) المفدوح : المثقل ، يقال فدحه الحمل والدين : إذا أثقله ٠

(٦) ينظر دروس في تاريخ آداب اللغة العربية معروف الرصافي صـ ٢٩ ط ١ مطبعة دار السلام ببغداد ١٩٢٨ ٠

رابعا : مظاهر إنسانيته ٠

تجلت في شعر"الرصافي"كثير من المشاهد والصور الإنسانية المستمدة من صميم الواقع والتي تعبر عن المجتمع ، وتكشف عن جراحه وأحزانه في وصف يذوب عاطفة ، ويتقاطر رحمة وإنسانية ، ونستطيع أن نجلي أهم هذه المظاهر فيما يلي :-

١ – الرحمة بالضعفاء

ففي شعر تغمره روح الإنسانية يعرض لنماذج [١] من طبقات المجتمع من اليتامى والأرامل ممن وقعوا فريسة للإذلال والفقر، فيرسم لوحة بائسة لأرملة مرضعة بلغ منها الفقر والجوع المدى ، حتى عجزت عن إرضاع طفلتها ، فتحركت فيه دوافع الإنسانية وتمكن بفضل حسه الرقيق أن يصفها وصفا بارعا يبعث الشجون ، ويستدر الدموع فقال :- [٢]

لقيتها ليتني ما كنت ألقاها تمشي وقد أثقل الإملاق ممشاها
أثوابها رثة والرجل حافية والدمع تذرفه في الخد عيناها
الموت أفجعها والفقر أوجعها والهم أنحلها والغم أضناها
تمشي بأطمارها والبرد يلسعها كأنه عقرب شالت زباناها [٣]

ويمضي "الرصافي " فيرينا إياها بجسدها العاري النحيل ، وهي تحمل طفلتها بيديها الواهيتين ، وقد أحاطتها بأهدابها البالية ، ترفع يديهاشاكية إلى ربها قسوة الفقر وألم الحرمان ، فيقول : – [٤]

تمشي وتحمل باليسرى وليدتها حملا على الصدر مدعوما بيمناها
قد قمطتها بأهداب ممزقة في العين منشرها سمج ومطواها
ما أنس لا أنس أني كنت أسمعها تشكو إلى ربها أوصاب دنياها

---

(١) في أحد الأيام استلم "الرصافي" راتبه وفي المساء وبينما كان ذاهبا إلى بيته صادف عند مدخل جسر "الفلوجة" نساء وأطفالا في الطريق بشكل لافت للنظر، فسألهم عن شأنهم فأخبروه : بأنهم ركبوا في السيارة إلى بغداد ، ولكن السائق أنزلهم في "الفلوجة" وأمتنع من السفر بهم إلى بغداد ، فما كان منه إلا أن رثى لحالهم ، وأعطاهم بعض النقود ، ثم أرسل إلى المدعو "حاج مهدي الطيار " وهو صاحب حانوت في مدخل الجسر ، وطلب منه أن يستأجر لهم سيارة لحسابه لسفرهم إلى بغداد . ينظر الرصافي يروي سيرة حياته صـ ١٤٢ .

(٢) ديوان الرصافي جـ ١ صـ ٢٠٨ ، ٢٠٩ .

(٣) شالت : ارتفعت ، والزبانة : الذنب .

(٤) ديوان الرصافي جـ ١ صـ ٢٠٩ .

وفي صورة ينفطر لها القلب ، ترفع الأم يديها إلى السماء تناجي ربها داعية أن يحفظ على تلك الرضيعة حياتها ، وأن يرحمها بجريان اللبن في ثديها ، فقد أصبحت رضيعتها بين الحياة والموت ، ذبلت نضارتها ، ووهت قواها ، وأضحت كالزهرة الذابلة التي حرمت ماء الغيث ، والأم المكلومة لم تعد تملك سوى البكاء والأنين ، يقول :- [1]

تقول : يا رب لا تترك بلا لبن هذي الرضيعة وارحمني وإياها
ما تصنع الأم في تربيب طفلتها إن مسها الضر حتى جف ثدياها [2]
يا رب ما حيلتي فيها وقد ذبلت كزهرة الروض فقد الغيث أظماها

وتأخذه الحيرة في أمر هذه الأرملة ، التي يذوب قلبها حسرة وتنفطر نفسها هما وألما على بكاء طفلتها ، ولم تدر أهو لداء ألم بها ؟ أم لفرط الجوع ؟ وهي قمة المأساة أن تقف الأم حيرى، وقد اجتمع على ابنتها ذل الفقر ، ومرارة اليتم ، وألم الجوع يقول : - [3]

ويلمها طفلة باتت مروعة وبت من حولها في الليل أرعاها
تبكي لتشكو من داء ألم بها ولست أفهم منها كنه شكواها

ثم يصرح بلسان الأب الحاني فيقول : ويح ابنتي ! ما ذنبها الذي جنته ؟ وقد قست الحياة عليها ، ونالت الأحداث منها ، فأفزعها الدهر باليتم ، وروعها الفقر بالحرمان ، وهي لا زالت طفلة في المهد ، فآه من هذين الداءين ، الفقر، واليتم حين يجتمعان !

ويمضي "الرصافي " فيذكر أنه دنا من هذه الأم ، فهمس إليها أن يشاطرها ما في يده وأن يعينها ببعض دراهم كانت معه ، وعرض عليها أن تقبلها تكرما دون مَنٍ أو أذىً ! فأرسلت إليه نظرة حانية ، وأجهشت بالبكاء ثم قبلت –في حياء – ما أعطاها ، متمنية أن يعم الناس حس مثل حسه وعطف مثل عطفه ، وحينئذ لن يكون في دنيا الناس شقي ولا محروم ، ولا أرملة تشكو مثل شكواها ، يقول :- [4]

---

(١) ديوان الرصافي جـ ١ صـ ٢٠٩ ٠ (٢) تربيب : تربية ٠
(٣) ديوان الرصافي جـ ١ صـ ٢٠٩ ٠ (٤) السابق صـ ٢٠٩ ٠

حتى دنوت منها وهي ماشية وأدمعي أو سعت في الخد مجراها
وقلت : يا أخت مهلا إنني رجل أشارك الناس طرا في بلاياها
هل تسمح الأخت لي أن أشاطرها ما في يدي استرضي به الله ؟
فأجهشت ثم قالت وهي باكية واها لمثلك من ذي رقة واها
لو عم في الناس حس مثل حسك لي ما تاه في فلوات الفقر من تاها
وكان في الناس إنصاف ومرحمة لم تشك أرملة ضنكا بدنياها

لقد بلغت الرحمة من قلبه مبلغها ، بدا ذلك واضحا في قوله : ويح ابنتي ! جاعلا من نفسه أبا لها ، يشاركها مصابها ، ويحمل معها آلامها ، ويعبر عن مصابها من الفقر واليتم بلغة التوجع والتأوه : أوٍ منهما آهاً ! على حد تعبيره ، ولم لا وهو رجل يشارك الناس جميعا في أوجاعهم ؟ ويقدم ما يقدمه من إحسان طلبا لرضا ربه ، وطمعا في رحمته ، وبدافع من تعانق الفطرة الدينية السوية ، مع الروح الإنسانية النبيلة.

❁❁❁

وتدفعه دوافع الإنسانية العالية إلى الكشف عن نموذج آخر من نماذج الحياة البائسة فيقف على أخت فقدت زوجها ، وشب يتيمها ، وطلع عليها العيد ، ولكن وجهه بدا عابسا قاتما يرسل عليها شواظا من البؤس والحرمان ، إذ نظرت ونظر معها يتيمها فلم يجدا سوى البؤس والحرمان ، تدق طبول العيد والناس فرحون مسرورون ، كل غاد لوجهته ، أما هي وطفلها ففي شأن آخر من التعاسة والشقاء فيقول في قصيدته (اليتيم في العيد) :- [1]

أطل صباح العيد في الشرق يسمع ضجيجا به الأفراح تمضي وترجع
صباح به يختال بالوشي ذو الغني ويعوز ذا الإعدام طمر مرقع[2]
صباح به يكسو الغني وليده ثيابا لها يبكي اليتيم المضيع
ألا ليت يوم العيد لا كان إنه يجدد للمحزون حزنا فيجزع

(١) ديوان الرصافي جـ ١ صـ ٥٨ .

(٢)الوشي : نوع من الثياب الموشية المحسنة ، وأعوزه الشيء : احتاج إليه فلم يقدر عليه ، والطمر : الثوب البالي

لقد خرج "الرصافي" صبيحة يوم العيد ، فوجد على مسرح الحياة مزيجا من الأضداد ، ما بين أطفال فرحين مسرورين وآخرين بائسين محزونين ، كان من بين هؤلاء البائسين طفل بدت عليه علامات الشحوب ، وارتسمت على جبينه أمارات الحرمان ،لا يثيره قرع الطبول ، ولا صوت المزامير ، يرد ابتسامات الواقفين بحسرة تتقطع لها الأحشاء ، ترن في سمعه الضحكات وهو عابس الوجه ، مقطب الجبين ، يلبس أقرانه كل جديد ، وهو عار الجسد ، بالي الثياب ترتجف أضلاعه من شدة البرد ، ما قصة هذا الصبي البائس بين هذه الوجوه الباسمة ؟ ولماذا غاب عنه الفرح وتاه عنه السرور؟ يقول:- [1]

وقفت أجيل الطرف فيهم فراعني هناك صبي بينهم مترعرع
صبي صبيح الوجه أسمر شاحب نحيف لمباني أدعج العين أنزع[2]
عليه دريس يعصر اليتم ردنه فيقطر فقر من حواشيه مدقع [3]
يليح بوجه للكآبة فوقه غبار به هبت من اليتم زعزع [4]
على كثرة قرع الطبل تلقاه واجما كأن لم يكن للطبل ثمة مقرع
يرد ابتسام الواقفين بحسرة تكاد لها أحشاؤه تتقطع
يرى حوله الكاسين من حيث لم يجد على البرد من بُرد به يتلفع
فكان ابتسام القوم كالثلج قارسا لدى حسرات منه كالجمر تلذع

ويأسى "الرصافي" على بؤسه ، وتميل به إنسانيته نحو استطلاع أمره فيتقدم إليه على مهل ويسائله في رفق من هو ؟ وما الذي أصابه فجعله مهموما واجما ؟ ولكن الصبي . وكعادة اليتامى . يهابه أول الأمر ويتوجس منه خيفة ، ويأخذ في الإعراض عنه ولكن "الرصافي" يتعقبه رغبة في الكشف عن حقيقة أمره ، فيقول :- [5]

ورحت أعاطيه الحنان بنظرة كما راح يرنو العابد المتخشع

---

(١) ديوان الرصافي جـ ١ صـ ٦٠ .
(٢) أدعج العين : أسودها مع سعة فيها ، والأنزع : المنحسر الشعر عن جانبي جبهته .
(٣) الدريس : الثوب البالي ، والردن أصل الكم ، وفقر مدقع : شديد كأنه يلصق صاحبه بالدقعاء وهي التراب .
(٤) الزعازع : الريح الشديدة ، الواحدة زعزع وزعزاع .
(٥) ديوان الرصافي جـ ١ صـ ٦٠ ، ٦١ .

هناك على مهل تقدمت نحوه وقلت بلطف قول من يتضرع
أيا بن أخي من أنت ما اسمك ما الذي عراك فلم تفرح فهل أنت موجع ؟
فأعرض عني بعد نظرة يائس وراح ولم ينبس إلى حيث يهرع

ويغافله"الرصافي" ويمشي في أثره حتى يدخل هذا اليتيم داره ، فيدنو منها ، فيسمع بكاء ونحيبا ، فتأخذه الحيرة ويستبد به التردد أيرجع من حيث جاء؟ أم يطرق الباب ليستجلي الحقيقة ويتبين الأمر؟ و كان تطلعه إلى المعرفة أكبر واستشرافه للحقيقة أشد ، يقول :– [1]

وعدت فأبصرت الصبي معرجا ليدخل دارا بابها متضعضع
دنوت إلى باب الدويرة مطرقا وأصغيت لا عن ريبة أتسمع
سمعت بكاء ذا نشيج مردد تكاد له صم الصفا تتصدع [2]

وفي مفاجئة تلقته عجوز تسكن هذه الدار،هي جدة هذا اليتيم لأمه فيسألها! ما سر هذا البكاء والنحيب؟ فأنَّت وتنهدت تنهد الكسير القلب ، متسائلة ما الذي يعنيه من نوح هذه الأيم ورزاياها؟ ولكنه يطمئنها ، فتشرع في الجواب مبينة كيف شقيت ابنتها بموت زوجها الذي كان يسعدها ويرعاها ! وبفقد الأخ الذي كان يعينها بعد موت الزوج ، وقد زج به في السجن ، فصارت بموت زوجها إلى التعاسة ، وصار وليدها إلى الذل والكمد ، يقول :– [3]

فأدنيتها مني وقلت لها اسمعي: حنانيك ما هذا الحنين المرجع ؟
فقالت وأنّت أنة عن تنهد وفي الوجه منها للتعجب موضع
أيا بني ما يعنيك من نوح أيم لها من رزايا الدهر قلب مفجع
فقلت لها إني امرؤ لا يهمني سوى من له قلب كقلبي مروع
فقالت أعن هذا التي طال نحبها سألت فعندي شرح ما تتوقع
ألا إنها سلمى تعيسة معشر من الصيد أقوت دارهم فهي بلقع [4]
وصارعهم بالموت حتى أبادهم من الدهر عجار شديد مصرع[5]

---

(١) ديوان الرصافي جـ ١ صـ ٦١ ٠ (٢) النشيج : الغصة بالبكاء من غير انتحاب ٠
(٣) ديوان الرصافي جـ ١ صـ ٦١ ، ٦٢ ٠ (٤) الصيد : جمع أصيد ، وهو الرجل الذي لا يلتفت من كبره ، وأراد بالصيد : أولي النعمة ، وبلقع : خالية (٥) العجار : المصارع ، الذي لا يطاق جنبه في الصراع ٠

فلم يبق إلا زوجها وشقيقها خليل وأما الآخرون فودعوا
ولم يلبث المقدور أن غال زوجها سعيدا فأودى وهي إذ ذاك مرضع
فربى ابنها سعدا وقام بأمره أخوها إلى أن كاد يقوى ويضلع (١)
فأذهب عنه الخال دهر غشمشم بما يوجع الأيتام مغرى ومولع (٢)
جرت هنة منه على خاله انطوى بقلب رئيس الشرطة الحقد أجمع (٣)
فزج به في السجن بعد تجرم عليه بجرم ماله فيه مصنع
فحق لسلمى أن تنوح فإنها من العيش سما ناقعا تتجرع
فلا غرو من أم اليتيم إذا غدت ضحى العيد يبكيها اليتيم المضيع

هذه هي أسرار البكاء والنحيب ، وأسباب التوجع والعويل ، بكاء على فقد الحبيب وجزع على أخيها القابع في قاع السجن يتجرع غصص الظلم وألوان التعذيب ، وأنين لحال هذا اليتيم ، فلم يملك "الرصافي" إلا أن يعود باكي الدمع ،جازع القلب موجع الفؤاد ، متمنيا أن لو غاب يوم العيد واحتجب ؛ كي لا يجدد الحزن على اليتامى والبائسين ، يقول :- (٤)

فعدت وقلبي جازع متوجع وقلت وعيني ثرة الدمع تهمع
ألا ليت يوم العيد لا كان إنه يجدد للمحزون حزنا فيجزع

ويتجاوز "الرصافي" بإنسانيته حدود هذه الأرملة ، وطفلها ، بعد أن عانى من أمرهما ما عانى ؛ ليقرر لنا الغاية من هذه القصة ، والمثل المضروب فيها أعني لفت أنظار المجتمع إلى مثل تلك النماذج البائسة في الحياة ، و الدعوة إلى الرفق بها ، وتقديم يد العون لها والثورة على سائر الأوضاع المتردية في المجتمع ، يؤكد ذلك أنه حين أطلع رفاقه على حال هذا اليتيم وأمه تأففوا واسترجعوا ! فقال : دعوا التأفف ناحية واتركوا الاسترجاع جانبا ،و انظروا وقارنوا بين حالكم الآن ، و سابق عهدكم ، فيقول :- (٥)

(١) يضلع : يقوى وتشتد أضلاعه .
(٢) الغشمشم : هو من يركب رأسه فلا يثنيه عن رأيه شيء ، وقيل هو الكثير الظلم .
(٣) هنة : أي شيء ما ، وهي مؤنث الهن .
(٤) ديوان الرصافي جـ ١ صـ ٦٣ .
(٥) السابق صـ ٦٣ .

ألسنا الألى كانت قديما بلادنا بأرجائها نـور العدالة يسطع
فما بالنا نستقبل الضيم بالرضا ونَعْنُوا لحكم الجائرين ونخضع (١)

{ألسنا الألى .... ؟ } بهذا الاستفهام الذي يقرر حقيقة كانت راسخة من أن بلادهم كان يسطع فيها نور العدل ، وتشرق فيها شمس الحرية{ فما بالنا .... ؟ } تعجبا مما وصل إليه حالهم وقد رضوا بالضيم وقبلوا المهانة وخضعوا للمذلة وتجرعوا كئوسها المريرة ٠

ثم يهز المجتمع هزا عنيفا ، كي ينبض بالحياة ، وتنبت في ربوعه أغصان الحرية وأوراق العزة ، إذ الحرية هي أساس الحياة ، وعمادها الأول ، يندبها إذا غابت ، ويأسى لفقدها إذا افتقدت، ويظلم الكون إذا شمسها أفلت ، هي الحياة وفقدها الموت يقول:- (٢)

إذا لم يعش حرا بموطنه الفتى فسم الفتى ميتا وموطنه قبرا

ويظل "الرصافي" مشدودا إلى الأيتام بصفة خاصة ، ومتعاطفا معهم إلى حد بعيد فها هو ذا يسهم في الاحتفال الذي أقامته " جمعية رعاية الأطفال "(٣) في بغداد فيقف من خلاله داعيا إلى الألفة والاجتماع ونبذ الفرقة والشتات ، ويسهم في الاحتفال الذي أقيم بمناسبة افتتاح مدرسة الأيتام التي أسستها الجمعية الخيرية في بغداد سنة ١٩٢٨ م ويلقي قصيد ته(الإحسان) وفيها تحدث عن الإحسان ، وأشاد بأهله ، جاعلا إياهم من أرباب السبق ، و أصحاب الدرجات العلا ، فيقول :- (٤)

في مجتنى غرس الخليقة لم أجد غرسا سوى الإحسان حلو المجتنى

وما انطلقت الألسن تلهج بالثناء ، ولا عمرت القلوب بالحب إلا بفضل هذا الإحسان الذي به تستعبد القلوب ، وتستل الضغائن ، وتموت الأحقاد ، يقول (٥)

بيناه يغدو للنفوس مقيدا بالحب يطلق بالثناء الألسنا
يستعبد الأحرار وهو صنيعهم ويرد بغض المبغضين تحننا

---

(١) نعنوا : نخضع قال تعالى { وعنت الوجوه للحي القيوم وقد خاب من حمل ظلما } سورة طه آية ١١١ ٠

(٢) ديوان الرصافي جـ ١ صـ ٥٠ ٠ (٣) في قصيدته الحياة الاجتماعية والتعاون صـ ٨٢ ٠

(٤) السابق صـ ٢٢٥ ٠ (٥) السابق صـ ٢٢٥ ٠

وانطلاقا من دوافع إنسانيته ، ورقة قلبه الخافق مع كل يتيم ، وإحساسه الشجي يبعث بقصيدته(إلى حماة الأطفال)إلى جمعية حماية الأطفال في مهرجانها الأول فيحي رجالها والقائمين عليها ، ويثني عليهم الثناء العاطر لأنهم أهل الإجلال والتقدير فيقول :- [1]

دار السلام تفاخرت برجال قاموا بأمر حماية الأطفال
وعنوا بتربية البنين عناية زادوا بها شمما على الأجيال

ثم يخاطبهم بأجل صفاتهم ، وهي صيانة اليتامى ، وحماية الضعفاء ، فيقول : – [2]

أحماة أطفال الأيامى إنكم جدراء بالتعظيم والإجلال
مرت لكم تلك السنون وأهلها غرر تزان بأنفع الأعمال

ثم يعلي من شأنهم في ساحة الإحسان ، بسبب صنيعهم سيبقى مع الأيام ذكره لن يلحقه العدم ، ولن يتهدده الفناء ، فيقول : – [3]

سيدوم مسعاكم ويبقى دأبكم في الدهر غير مهدد بزوال
ولسوف يذكركم ويشكر سعيكم من سوف يخلفكم من الأجيال

لقد عايش "الرصافي" أحداث مجتمعه ، وكانت نشأة المعاناة والحرمان ، وحياته الحافلة بالأحداث ، ومعيشته المملوءة بالبؤس والشقاء من العوامل التي جعلته شديد التأثر بكل الجوانب الإنسانية في الحياة [4] فكان من أكثر الناس تعاطفا مع اليتامى ، ومن أشدهم عناية بالأرامل وأصحاب الحاجات من البائسين ومن هم أولى بالرحمة والبر وأسهم في كل عمل خيري يصون لهم آدميتهم ، ويحفظ عليهم إنسانيتهم ، أسهم في الجمعيات الخيرية ، وجمعيات رعاية الأطفال ، ودور رعاية الأيتام ، ووقف يعضد هذه الجمعيات ويشيد بالقائمين عليها ، وما يقدمون للمجتمع من خدمات جليلة ، وكأنه أب لهؤلاء اليتامى أو كأنهم أبناؤه يحنو عليهم ويأسى لمصابهم ويسعد كل السعادة لكل عمل يطرح البهجة في قلوبهم ، ويرسم الفرحة على وجوههم ٠

(١) ديوان الرصافي جـ ١ صـ ٢٧٠ (٢) السابق صـ ٢٧٠ ٠ (٣) السابق صـ ٢٧١ ٠

(٤) ينظر دراسات في الأدب العربي الحديث ومدارسه د محمد عبد المنعم خفاجي جـ ١ صـ ١٧٣ ٠

٢– تعاطفه مع البائسين

ومن مظاهر إنسانيته وقوفه عند مشاهد البؤس [١] وتعاطفه مع كل بائس قضت عليه الأيام ببؤسها ، فيعرض علينا صورة مؤلمة أشد الإيلام عند نفس إنسانية جمعت بين "الفقر والمرض" وهما داءان دويان قلما اجتمعا على شخص إلا قصما ظهره ونالا منه [٢]

ففي قصيدته (**الفقر والسقام**) يحكي لنا عن شاب يدعى " بشيرا"أصابه المرض ونزلت بساحته الأوجاع وكان له أخت هي رفيقة كفاحه ، وشريكة بؤسه ، سعت للإنفاق عليه بعد مرضه ، وضحت في سبيل شفائه بكل غال ونفيس ، ولكن الموت لم يمهله بعد معاناته القاسية مع الآلام ، ولم تبق أخته بعده إلا قليلا ، وقد بدأ ها"الرصافي" بقوله : – [٣]

أي مضنى يمدها باكتئاب أنَّة تترك الحشا في التهاب
يتشكى والليل وحف الإهاب ضمن بيت جسا على الأعقاب [٤]
صفعته فمال كف الخراب
تسمع الآذان منه صوتا حزينا راجعا في حشا الظلام كمينا
يملأ الليل بالدعاء أنينا رب كن لي على الحياة معينا
رب إن الحياة أصل عذابي
وجع في مفاصلي دق عظمي ودهاني ولم يرق لعدمي
عاقني عن تكسبي قوت يومي رب فارحم فقري بصحة جسمي
إن فقري أشد من أوصابي

(١) يروى "الرصافي" عن نفسه فيقول :كان لنا جار فقير مبتلى بداء المفاصل ، وكانت له أخت تمرضه ، وكان هذا المريض إذا جن عليه الليل والى أنينه ، وكان أنينه يزعجني طوال الليل ، فهذه الحادثة أوحت إلي هذه القصيدة ، ينظر معروف الرصافي حياته وبيئته وشعره د بدوي طبانة صـ ١٧١ ٠

(٢) ينظر دراسات في الأدب العربي والتاريخ ا / محمد عبد الغني حسن صـ ٢٠٣ الدار القومية للطباعة والنشر القاهرة د/ ت

(٣) ديوان الرصافي جـ ١ صـ ٩٤ ٠

(٤)الوحف : الشعر الكثير الأسود ، والإهاب : الجلد ، يصف شدة ظلام الليل ، وجثا على الأعقاب : يريد أنه قارب أن ينهدم ٠

ويكشف "الرصافي"عن حال هذا الشاب بطريق الاسترجاع قبل أن ينال منه المرض وتستبد به الأوجاع ، إذ كان شابا فقيرا يسعى لكسب قوته الزهيد بكده ، وكان يعول أختا له فاتها ركب الزواج عاشا سويا يقتسمان لقمة العيش ، وما تجود به الأيام ، يشاطر كل منهما أخاه ألم الحياة ، وحياة الألم ، وبؤس العيش ، والعيش البائس ، في رضا وقناعة تامين إلا أن الأيام أبت إلا أن تزيدهما فقرا إلى فقرهما ، وبؤسا إلى بؤسهما فأصيب "البشير" بمرض عاقه عن الحركة ، وأقعده عن الكسب فأضحى قعيد الدار، طريح الفراش ، يبكي إذا جنه الليل مصابه من الآلام من جانب ، ويشكو عدمه وبؤسه من جانب آخر ، والعذاب كل العذاب أن يشكو المرء شكايتين متلازمتين شكاية المرض وما يسوقه من عدم ورقة حال ، وشكاية العدم وما ينشأ عنه من مرض وأسقام ، يقول:- (١)

رجل معسر يسمى بشيرا كان يسعى طول النهار أجيرا
كاسبا قوته زهيدا يسيرا مالكا في المعاش قلبا شكورا
راجيا في المعاد حسن المآب
بات يبكي إذا له الليل آوي بعيون من السهاد نشاوى (٢)
فترى وهو بالبكا يتداوى قطرات من عينه تتهاوى
كشهاب ينقض إثر شهاب

واستبد به المرض ، وطالت به الشكوى ، ولم تملك الأخت إلا أن تواسيه في مصابه في محاولة للتخفيف عنه ، ولكن هيهات ! وقد أحس كأنه مقيد بالقيود ، وموثق بالأغلال يئن من الفقر ويستبيحه الحياء من إنفاق أخته عليه حتى نفذت دراهمها ولم تملك الأخت البائسة وقد نال منه الطوى ، وبلغ الجوع منه كل مبلغ إلا الماء تعلله به ، وهو لا يقيم أودا ولا يطفئ لهبا، فخرجت إلى جيرانها باكية تطلب الطعام ، فرق لها الجيران وأعطوها من الطعام ما جادت به أيديهم فحملته إلى بيتها بين فرحة الظفر، وذل الانكسار، يقول :- (٣)

(١) ديوان الرصافي جـ ١ صـ ٩٥ .
(٢) نشاوى : سكارى جمع نشوان السابق صـ ٩٦ .
(٣) ديوان الرصافي جـ ١ صـ ٩٨ ، ٩٩ .

رام خبزا والجوع أذكى الأوارا في حشاه فعللته انتظارا
ثم جاءت بالماء تبدي اعتذارا وهل الماء وهو يطفئ نارا
يطفئ الجوع ذاكيا في التهاب
فانثنت وهي بين ذل وعز تحمل التمر في يد فوق خبز
وبأخرى سمنا وبعض أرز منحوها به وذو العرش يجزي
من أعان الفقير حسن الثواب

غير أن الأقدار كانت رحيمة بآلامه فلم تهمله طويلا ، ففي ليلة من ليالي الشتاء الماطرة الراعدة أشرفت عليه المنية ، ونال منه الموت ، فناحت الأخت وصاحت ، بعد أن نادته فأعياها الجواب ، وخرجت إلى جيرانها تتبين حقيقة الأمر فلعله في سكرة من سكرات المرض ، ولكنه كان الموت فعلى صياحها ، وراحت تستعطف الحضور من المشيعين أن يجودوا بعطاياهم ؛ كي يكفنوه حتى يحمل إلى قبر يواري جسده ، يقول : – [1]

فدعته والعين تزري الدموعا أخته وهي قلبها قد ريعا
يا أخي أنت ساكن أفجوعا ساكن أنت يا أخي أم هجوعا؟
فاشفني يا أخي برجع الجواب
فرأت منه أنه لا يجيب فتدانت والدمع منها صبيب
ثم أصغت وفي الفؤاد وجيب ثم هابت والموت شي ء رهيب [2]
ثم قامت بخشية وارتياب
أيها الواقفون لا تهملوه دونكم أدمعي بها فاغسلوه
ثم بالثوب ضافيا كفنوه وادفنوه لكن بقلبي ادفنوه
لا تواروا جبينه التراب

(١) ديوان الرصافي جـ ١ صـ ٩٨ ، ٩٩ .
(٢) الوجيب : الخفقان والاضطراب .

وتشيعه أخته بمزيد من البكا والنواح متمنية أن تلحق به كي تستريح ،من الألم الذي يعتصر قلبها ، وقد طلبت إلى حاملي نعشه من المشيعين ألا يسرعوا به ؛ لأنها تعيش لحظات وداعه الأخيرة متحسرة على ضياع عمره وأنه ما استمتع بحياته كما استمتع بها أقرانه ، يقول :- (١)

ناحت الأخت حين ساروا وصاحت أختك اليوم لو قضت لاستراحت
ثم سارت مدهوشة ثم طاحت ثم قامت ترنو له ثم راحت
تسكب الدمع أيما تسكاب
أيها الحاملون لا مشى ركض إن هذا يوم الفراق الصعب
فسألوه عن قصده أين يمضي إنه قد قضى ولم يك يقضي
واجبات الصبا وشرخ الشباب

وتدور عجلة الزمان ، وبعد عامين من موت "بشير" تصادف أن كان "الرصافي" يمشي مشية المتحير الذي أثقلته الأحزان ، وإذ به يبصر نعشا تراه العين فتوقن أنه نعش يحمل فقيرا؛ فهو غير مغطى تبدو ألواحه الخشبية ، فيجدد هذا النعش الحزن في قلبه ويرى تناسبا بين مظهر النعش من الفقر، وبين حاله كأن للحزن بينهما رحما ونسبا فيقول :- (٢)

رحت يوما وقد مضت سنتان أتمشى "بشارع الميدان"
مشي حيران خطوه متدان أثقلته الحياة بالأحزان
وسقته كأسا كطعم الصاب
بينما كنت هكذا أتمشى عرضت نظرة فأبصرت نعشا
باديا للعيون غير مغشى نقش الفقر فقيه للحزن نقشا
فبدا لوح أبؤس واكتئاب
قلت سرا والنعش يقرب مني أيها النعش أنت أنعشت حزني
للأسى فيك حالة ناسبتني إن بدا اليوم فيك حزن فإني
أنا للحزن دائما ذو انتساب

(١) ديوان الرصافي جـ ١ صـ١٠٠ .
(٢) السابق صـ ١٠١ .

ويتبع "الرصافي" النعش ويسير في أثره ، وبعد أن وارى المشيعون الجسمان كان الدمع ينهمر من عينيه ، معتبرا بأن الموت هو قدر الأحياء ، ونهاية كل حي ، ثم سأل عن الميت فأخبر أنها "فاطمة " أخت " بشير" الذي قضى نحبه بين فقر مدقع ومرض شديد ، وأنها اكتوت هي الأخرى بنار الفقر والمسغبة ، ودهمها المرض كأخيها حتى قضي عليها ، فنزل الخبر عليه كالصاعقة إذ تذكر أخاها ومأساته مع الفقر والمرض ، فتصدع قلبه من ثقل الحزن وهول المصاب فلجأ إلى الله تبارك وتعالى بالدعاء ، يقول :- (١)

مذ لحدنا ذاك الدفين وعدنا قلت والدمع بل مني ردنا
إن هذا الذي قد وعدنا فأبينوا من الذي قد لحدنا
فتصدى فتى منهم للجواب
قال إن الدفين أخت بشير أخت ذاك المسكين ذاك الفقي
بقيت بعده بعيش كسير وطرف باك وقلب كسير
وقضت مثله بداء القُلاب
قلت أقصر عن الكلام فحسبي منك هذا فقد تزلزل قلبي
ثم ناجيت والضراعة ثوبي رب رحماك رب رحمك ربي
رب رشدا إلى طريق الصواب

* * * * * *

ولأن القضية عنده لم تكن مجرد وصف لحالة فردية عانت مرارة الفقر وقهر المرض ، بل كانت إنسانية عامة تصور قضية هامة من قضايا المجتمع ، هي مأساة الفقر وتمثل النزاع القائم بين الطبقات ، والصراع المحتدم بين الأغنياء والفقراء وأن ما حدث " لبشير" وأخته " فاطمة" يحدث لكثير من الفقراء ، يهوى بهم الفقر، وينال منهم العدم ؛ لجحود أرباب الأموال ، وتنكر أصحاب الثراء ، لما كان الأمر كذلك توجه إلى الأغنياء باللوم ، ناعيا عليهم جحودهم بحرمان الفقراء حيث تركوهم فريسة للجوع وطعمة للسقم ، بينما هم في جنبات النعيم يتقلبون ، ومع حرمانهم

(١) ديوان الرصافي جـ ١ صـ ١٠٢ .

الفقراء ، وإعراضهم عن طاعة الله في إخراج حقه المعلوم ليتهم أنفقوا أموالهم فيما يجدي وينفع! أو حتى كنزوها لورثتهم ، بل أنفقوها في اللهو والسفه، فيقول :- [1]

أيها الأغنياء كم قد ظلمتم نعم الله حيث ما إن رحمتم
سهر البائسون جوعا ونمتم بهناء من بعد ما قد طعمتم
من طعام منوع وشراب
كم بذلتم أموالكم في الملاهي وركبتم بها متون السفاه
وبخلتم منها بحق الإله أيها الموسرون بعض انتباه
أفتدرون أنكم في تباب [2]

تلك هي بعض الغايات الإنسانية لهذه القصة ، تشديد النكير على الأغنياء الذين بخلو فأضروا بالمجتمع ، وقرع ناقوس الخطر للإحساس بهؤلاء البائسين وما تضطرب به حياتهم بسبب الفقر والعوز ، وإيقاظ ما مات من ضمائر الأغنياء ؛ كي تعود لها الحياة فيؤدوا حق الله تعالى في أموالهم ، حتى تستقيم الحياة ، ويسود الوئام بين سائر الطبقات .

ثم هي في الوقت ذاته إحساس إنساني عال بمشاعر البائسين ، ورصد أمين لأحوالهم في تفاعل حي ، وتأكيد على دور الأديب في معالجة قضايا مجتمعه. ولذا نراه يشتد على الأغنياء ، ويقسو في نعتهم ، فيرميهم بالعمي ، إذ يقول :- [3]

أرى أغنياء الناس كالعمي لم يرو شقاء بني الغبراء من كل بائس

ويطلق من قصائده صرخات يهاجم بها الطبقية ، والاستغلال الاجتماعي ، وينعى على الأغنياء تسخيرهم للأجراء من الفقراء وأصحاب الحاجات ، ويذكرهم بأنهم ما كسبوا الغنى وحصلوا الثروات إلا بكد ح الفقراء وكدهم ، وما سعدوا إلا بشقائهم ، فيقول :- -[4]

أرى كل ذي فقر لدى كل ذي غنى أجيرا مستخدما له في عقاره
ولم يعطه إلا اليسير وإنما على كده قامت صروح يساره

---

(١) ديوان الرصافي جـ ١ صـ ١٠٢ .
(٢) التباب : الخسران .
(٣) ديوان الرصافي جـ٢ صـ ٥١٥ .
(٤) السابق جـ ١ صـ ٣٧ .

ويدعو "الرصافي" إلى مذهب الاشتراكية القائم على تكافؤ العطاء ، فلا يسخر الفقير عند الغني ، ولا يستأثر الأغنياء بالخير دون الفقراء ، ولا يعامل الفقراء من قبل الأغنياء معاملة العبيد فيقول من قصيدته (إلى العمال) منددا بهذا التفاوت البغيض :- [1]

عندنا اليوم في الحياة نظام قد حوى كل باطل ومحال

حيث يسعى الفقير سعي أجير لغني مستأثر بالغلال

فترى المكثرين في طيب عيش أرغدته لهم يد الإقلال

وترى المعسرين في كل أرض كعبيد والموسرين موال

إنما الحق مذهب الاشتراكية فيما يختص في الأموال

ويحمل على طبقة الأغنياء من المترفين ، الذين ينعمون بالخيرات ، ويرفلون في النعيم وهم طبقة محدودة ، منعمة مترفة ، بينما السواد الأعظم يعاني آلام الفقر وذل الحاجة ، ورب سعيد واحد كانت سعادته سببا في شقاء الآلاف فيقول متأملا الحياة :- [2]

تأملت في الحياة طرا فلم أجد بهم باسما إلا على ألف واجم

ورب سعيد واحد تم سعده بألف شقي في المعيشة راغم

* * * * *

ويلتقط "الرصافي " مشهدا آخر من مشاهد البؤس ، وقد صحبه صديقه إلى سجن بغداد، وكان والد هذا الصديق مسئولا عن السجن آنذاك ، فرأى بعينيه ما رأى من مشاهد البؤس والشقاء ، فنظم قصيدته الشجية (السجن في بغداد) وفيها راح يصور آلام السجناء وما يكابدون من مذلة ، وقهر ، وحرمان من أبسط حقوقهم الآدمية ، وتسلط القائمين عليه فضلا عن قعره المظلم الموحش الذي تنطفئ فيه جذوة الروح ، وتخمد فيه نبضات الحياة فينطلق داعيا كل ذي قلب رحيم لزيارة موطن الأسى ، وساحة القهر ، فيقول : - [3]

---

(١) ديوان الرصافي جـ ١ صـ ١٨٠ ، ١٨١ .

(٢) السابق صـ ٢١٢ .

(٣) السابق صـ ٤٣ .

زر السجن في بغداد زورة راحم لتشهد للأنكاد أفجع مشهد (١)
مربع سور قد أحاط بمثله محيط بأعلى منه شيد بقرمد (٢)
هي الساحة النكراء فيها تلاعبت مخاريق ضيم تخلط الجد بالدد (٣)
تواصلت الأحزان في جنباتها بحيث متى يبل الأسى يتجدد

ويعرض علينا صورا من داخل فنائه ، فغرفه مقابر للأحياء ، ونوافذه لا ينفذ منها شيء لا تعرف الريح إلى فنائه سبيلا ، تنبعث منه روائح كريهة ، يود السجين لو جاد بنفسه فرارا من هذا المستنقع الوبيل ، يقول :– (٤)

مقابر للأحياء غصت لحودها بخمس مئين أنفس أو بأزيد
تصعد من جوف المراحيض فوقها بخار إذا تمرر به الريح تفسد
هناك يود المرء لو قاء نفسه وأطلقها من أسر عيش منكد (٥)

ويتابع مآسي السجناء فيه ، ويصور بعضا من آلامهم النفسية والجسدية وقد هوت بهم أقدارهم إلى قاع الظلم ، وقعر الجور، ومستقر البلايا ، وموطن الأحزان يعلوهم الضيم ويكسوهم الهوان ، يميتون نهارهم بالأماني الباطلة ، ويحيون ليلهم بالسهاد والأرق تثقلهم قيود الذلة والهوان ، فضلا عما هم فيه من القيود والأغلال يقول :– (٦)

بها كل مخطوم الخشام مذلل متى قيد مجرورا إلى الضيم ينقد(٧)
يبيت بها والهم ملء إهابه بليلة منبول الحشا غير مقصد (٨)
يميت بمكذوب العزاء نهاره ويحي الليالي غير نوم مشرد
ينوء بأعباء الهوان مقيدا ويكفيه أن لو كان غير مقيد (٩)

---

(١) الأنكاد : جمع نكد ، وهو الرجل المشئوم ذو العسر .

(٢) أي هو مربع سور ، يصف بهذا البيت بناء السجن وشكله ، أي هو سور مربع أحاط بسور آخر مثله .

(٣) المخاريق : الخرق المفتولة يلعب به الصبيان ، والدد : اللهو .

(٤) ديوان الرصافي جـ ١ صـ ٤٤ .

(٥) قاء نفسه : أي أخرج نفسه من جسده كالقيء .

(٦) ديوان الرصافي جـ ١ صـ ٤٤ .

(٧) الخشام : الأنف العظيم ، وقيد : سحب

(٨) الإهاب : الجلد ، ومنبول : مصاب بالنبل ، والحشا : الضلوع ، ومقصد : من أقصده السهم أي أصابه فقتله .

(٩) ينوء بأعباء الهوان : تثقله أحماله .

ويمعن في تبيان حالهم ، و حقارة شأنهم ، وما هم فيه من تعاسة وشقاء ، إذ لو رأيتهم لرأيت وجوها يعلوها الشحوب والصغار ، ويكسوها الذل والهوان ، وأناسا من البشر، وما هم من البشر يترنحون من الآلام كأنهم سكارى ، وماهم بسكارى ولكن هول العذاب شديد ، فيقول : – [1]

تراهم نهار الصيف سفعا كأنهم أثافي أصلاها الطهاة بموقد [2]

وجوه عليها للشحوب ملامح تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد [3]

تراهم سكارى في العذاب وما هم سكارى ولكن من عذاب مشدد [4]

ويتساءل "الرصافي" متعجبا ! على أي شريعة كان هذا القهر ؟ ولأي حكمة كان؟ ولماذا شاع الظلم؟ واستبيح الغبن ؟ وصار الناس في طلب الحق كأسراب النعام المذعور؟[5]

على أي حكم أم لأية حكمة ببغداد ضاع العدل من غير منشد؟

رعى الله حيا مستباحا كأنه من الذعر أسراب النعام المطرد

ويرجع "الرصافي " أسباب ذلك ؛ لتخاذلهم عن نصرة الحق ، وتهيبهم مقاومة الطغيان لا يستثني من ذلك أحدا حتى نفسه ، فهو مثلهم لم يحد عنهم قيد زراع ، وإن كان قد تميز عنهم بأنه غرد بشعره حينا ، وناح به حينا آخر ، يقول :– [6] .

وما ذاك إلا أنهم قد تخاذلواولم ينهضوا للخصم نهضة ملبد

فناموا عن الجلى ونمت كنومهم سوى نوحة مني بشعر مغرد

وهل أنا إلا من أولئك أن مشوا مشيت وإن يقعد أولئك أقعد[7]

---

(١) ديوان الرصافي جـ ١صـ ٤٥ . (٢) سفعا : وجوههم متغيرة ، والأثافي : أحجار توضع عليها القدر .

(٣) الشطر الثاني من هذا البيت مأخوذ من قول طرفة : – لخولة أطلال ببرقة ثهمد تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد

وهو يدل على تأثر الرصافي بالسابقين من الشعراء وصلته بتراثنا القديم .

(٤)البيت مقتبس من قوله تعالى { وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد } الحج آية ٢ .

(٥) ديوان الرصافي جـ ١ صـ ٤٦ . (٦) السابق صـ ٤٦ .

(٧) يبدو تأثر الرصافي الشديد في هذا البيت بقول دريد بن الصمة :–

وهل أنا إلا من غزية إن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشد

ديوان دريد بن الصمة ت د / عمر عبد الرسول صـ ١٤ طبع دار المعارف القاهرة ١٩٨٥ م .

وفي موطن آخر يحكي لنا قصة عجوز تبكي وحيدها وقد حكم عليه بالسجن ظلما في جناية لفقها له حاكم ظالم أسرع في تنفيذ حكمه لم يصغ إليه لسماع دفاعه عن نفسه ، ولم يقبل منه رجاء ، بل كان فظا غليظا ، كأنه قُد من الصخر قلبه ، وطُبع على الجور فؤاده فألقاه في السجن ظلما تثقله قيوده ، وتنوء به أحزانه ، فيقول من قصيدته (العالم شعر):- [1]

ونائحة تبكي الغداة وحيدها بشجو وقد نالته ظلما يد القهر
عزاه إلى إحدى الجنايات حاكم عليه قضى بطلا بها وهو لا يدري
فويل له من حاكم صب قلبه من الجور مطبوعا على قالب الغدر

وفي غمرة حزنها ذهبت إلى السجن عساها أن تراه أو تسمع صوته من خلف جدره العالية ويقف السجان على أمرها ، ولكنه لا يرعي لها حرمة ، بل يزجرها ، وهي لا تأبه لهذا الزجر، فتناديه : بني ! لقد أحزنني ما أصابك من ضر ، وما نزل بك من بلاء ولكن لا حيلة لي دفع هذا البلاء ولا قدرة للأحياء جميعا في رد هذا القضاء ، فلتستعن بالله ولتصبر فلست بالجاني ، ولن يخذل الله بريئا ، وعما قليل ستنجلي الغمة، يقول :– [2]

تناديه والسجان يكثر زجرها عجوز له من خلف عالية الجدر
بني استعن بالصبر ما أنت جانيا وهل يخذل الله البريء من الوزر؟
فجئت أعاطيها العزاء وأدمعي كأدمعها تنهل مني على النحر

وهذه النماذج البائسة تدلنا على أنه رجل حر يأبى إلا أن يرى مجتمعه يتنفس عبير الحرية، ويستنشق هواء العزة والكرامة ، وتفصح لنا غاية الإفصاح عما انطوى عليه قلبه الرحيم من الحدب على البائسين ، والتألم للضحايا والمأزومين ، كما قال :- [3]

إن لي إن سمعت أَنة محزو ٍ ن أنينا مرجعا في فؤادي

---

(١) ديوان الرصافي جـ ١ صـ ١١ ٠ (٢) السابق صـ ١٢ ٠ (٣) السابق صـ ١٩ ٠

٣- العطف على آلام الشعب

ومن المشاهد الإنسانية التي استوقفت شاعرنا ، مشاهد العطف ، الممتزجة بالرحمة والإشفاق ، بمن تطالهم نوائب الحياة ، وتتبدل بهم الأحوال ، وقد تحولوا من الغنى إلى الفقر ومن السعة إلى الضيق ، فيحكي لنا قصة رجل عرف بين الناس بفعل المكرمات وكان مثالا للمروءة والشهامة ، إلا أن الأحوال تبدلت به ، والزمان أعرض عنه ، فعاني مرارة الضيق بعد السعة ، والعسر بعد اليسر ، ونالت منه يد الفقر والعوز ، وسلبته الأيام وجاهة الجاه ، وزينة المال ، وعز المهابة ، فيقول :- [١]

وأصيد مأثور المكارم في الورى يريك إذا يلقاك وجه فتى حر [٢]
يروح ويغدو في طيالسة الغنى ويقضي حقوق المجد من ماله الوفر [٣]
تخونه ريب الزمان فاولعت بإخلاقها ديباجتيه يد الفقر [٤]

وإمعانا في تبدل الأحوال به ، وإعراض الزمان عنه ، وتنكر الأيام له ، يعرض علينا صورا لما كان فيه من عز وجاه ، وما آل إليه حاله من حقارة و هوان ، فقد كان ضافي العز ، مطاع الكلمة واسع الجاه ، وافر المال ، يتحلق حوله عظماء الرجال ، ويقف ببابه السائلون والعفاة فيغمرهم بفيض عطائه ، وواسع نائله .

ولكن الأيام أبت إلا أن تدور دورتها ، بأن لا تبقي شيئا على حاله ، فنُزع منه المال وسلب منه الجاه ، ونال منه البؤس ، وصار جسمه موطنا للعلل والأوجاع إلى أن قضى في العدم نحبه ، ولم يكن عنده من المال ما يكفن به ، فتطوع بعض المحسنين لتجهيزه وانصرف الناس عنه ولم يحفل بتشييعه إلا أقل القليل من الناس وتلك آفة الكثير من الناس

---

(١) ديوان الرصافي جـ ١ صـ ١٠ .

(٢) الأصيد : الرجل الذي لا يلتفت من زهوه وخيلائه .

(٣) طيالسة : جمع طيلسان وهو نوع من الثياب يلبسه الخواص ، والوفر: الكثير .

(٤) الإخلاق مصدر أخلق الثوب : أبلاه ، وديباجتيه : خديه .

في كل زمان ومكان[1] حيث يميلون مع الغنى حيث مال وإلى الجاه حيث كان ، يقول :- [2]

فأصبح في طرق التصعلك حائرا يحول من الإملاق في سمل طمر [3]
كأن لم يرح في موكب العز راكبا عتاق المذاكي مالك النهى والأمر [4]
ولم تزدحم صيد الرجال ببابه ولم يغمر العافين بالنائل الغمر
إلى أن قضى في علة العدم نحبه فجهزه من مالهم طالبوا الأجر
فرحت ولم يحفل بتشييع نعشه أشيعه في حامليه إلى القبر

* * * * *

ومن القضايا الإنسانية التي تبرز جانب العطف على الآلام النفسية للمرأة قضية "الطلاق " إذ يقف "الرصافي " في وجه الطلاق والتوسع فيه وقفة يشن فيها هجوما واسعا على هذه الآفة التي توسع كثير من الناس فيها ، دون سبب مقبول ، والتي تهدم كيان الأسرة وتقوض بنيانها حين تطلق المرأة دون ذنب جنته ، وإنما يقع بسبب يمين يحلفه الزوج ، دون قصد للطلاق ففي قصيدته(المطلقة) يحكي قصة زوجين أحب كل منهما الآخر حبا جما وكانت الزوجة على جانب كبير من الجمال الخِلقي والخُلقي حيية عفيفة مبرأة من العيوب

---

(١) من آفة الناس منذ القدم نظرتهم لصاحب المال نظرة إجلال وتقدير ولو كان عبدا ، وتنكرهم لفاقد المال وتحولهم عن مودته، ولو كان كريما رفيع القدر والشان كما قال أوس بن حجر :- فإني رأيت الناس إلا أقلهم خفاف العهود يكثرون التنقلا
بني أم ذي المال الكثير يرونه ولو كان عبدا سيد الأمر جحفلا
وهم لمقل المال أولاد علة وإن كان محضا في العمومة مخولا
ديوان أوس بن حجر شرح د / محمد يوسف نجم صـ ٩١ ، ٩٢ ط ٣ دار صادر بيروت ١٩٧٩ .
ويكشف أعرابي عن مدى تأثير المال في النفوس وأنه يقلب الموازين الرحم والقرابة حتى مع أولى القربى ، فيقول :-
إذا افتقرت نأى واشتد جانبه وإن رآك غنيا مال واقتربا
وذو القرابة عند الليل تطلبه هو البعيد إذا ما جئت مطلبا
مجموع أشعار العرب ، الأصمعيات ج ١ تحقيق ا / أحمد محمد شاكر وا / عبدالسلام هارون صـ ٦ طبع دار المعارف القاهرة .

(٢) ديوان الرصافي جـ ١ صـ ١١ . (٣) التصعلك : الافتقار ، والإملاق الفقر ، سمل طمر : ثوب بال .

(٤) المذاكي : الخيل التي تم سنها وكملت قوتها .

فيقول :- [1]

بدت كالشمس يحضنها الغروب فتاة راع نضرتها الشحوب [2]
منزهة عن الفحشاء خود من الخفرات آنسة عروب [3]
نوار تستجد بها المعالي وتبلى دون عفتها العيوب [4]

هكذا كانا يعيشان حياة هادئة رخية ، تمضي الأيام بينهما على أحسن ما تكون بين زوجين ، إلى أن وقع الزوج في خلاف مع بعض شركائه ، واقتضاه الأمر أن يحلف يمين الطلاق فحلفه . على جهل . ثلاثا في حال انفعال وغضب ، ووقع الطلاق ، ولجأ إلى أهل الرأي والفتوى من العلماء يستفتيهم ، فأفتوه بالطلاق الذي لا رجعة فيه ، يقول :- [5]

فغاضب زوجها الخلطاء يوما بأمر للخلاف به نشوب
فأقسم بالطلاق لهم يمينا وتلك ألية خطأ وحوب [6]
وطلقها على جهل ثلاثا كذلك يجهل الرجل الغضوب
وأفتى بالطلاق طلاق بت ذوو فتيا يعصبهم عصيب

ويطيل "الرصافي" المحاورة بين الزوجين ليرينا فداحة هذا الخطب ، وجرم هذا الخطأ الذي ينزلق إليه الرجال ، ويقع فيه أصحاب الفتوى من المتشددين الذين يطلق بعضهم باليمين اللغو الذي لا يقصد منه الطلاق ، فتنفصم عرى الزواج وينهدم كيان ثقة ومحبة وتتقوض أواصر ود ورحم[7] فيقول في حوار ناعم رقيق بين الزوجين :- [8]

فظلت وهي باكية تنادي بصوت منه ترتجف القلوب

---

(١) ديوان الرصافي جـ ١ صـ ٥٤ ، ٥٥ .

(٢) راع : شوه ، وراع في الأصل بمعنى أفزع وأخاف ، نضرتها : رونقها وحسنها .

(٣) الخود : المرأة الشابة ، الخفرات : جمع خفرة ، وهي المرأة التي تستحي أشد الحياء ، والعروب : المرأة المتحببة إلى زوجها .

(٤) النوار : المرأة النفور من الريبة ، ونوار : اسم امرأة كان زوجها "الفرزدق ، فطلقها ثم ندم ، وفي البيت إشارة إلى ذلك

(٥) ديوان الرصافي جـ ١ صـ ٥٥ .

(٦) ألية : قسم ، والحوب : الذنب إذ الحلف بالطلاق حرام لذلك كان الحالف به مذنبا .

(٧) ينظر دراسات في الشعر العربي المعاصر د / شوقي ضيف صـ ٦٤ .

(٨) ديوان الرصافي جـ ١ صـ ٥٦ .

لماذا يا نجيب صرمت حبلي وهل أذنبت عندك يا نجيب؟ [1]
أبن ذنبي إلي فدتك نفسي فإني عنه بعدئذ أتوب
أما عاهدتني بالله أن لا يفرق بينا إلا شعوب؟ [2]

ولكن الزوج لا يحير جوابا! فماذا عساه أن يجيب؟ وهل يملك من جواب لهذا العتاب الممض الذي يثير الأحزان ، ويبعث الشجون ، فيغضي حياء منها ، ويعلن الندم ويطلب الصفح عن هذا الفراق الذي وقع بلا قصد ، ودون بغض ، ولذا فهو باق على عهده معها ، وحبه لها وإن كان لا يدري كيف تستقيم له الحياة ، ويطيب له العيش ، يقول : – [3]

فأطرق رأسه خجلا وأغضى وقال ودمع عينيه سكوب
نجيبة أقصري عني فإني كفاني من لظى الندم اللهيب

ثم يتوجه باللوم إلى المتشددين من أهل الفتوى طالبا إليهم الأخذ بمبدأ التيسير مراعاة لمصالح الخلق ، وأن تعي قلوبهم الحكمة من الطلاق وعليهم الأخذ بفتوى"ابن القيم" وأستاذه " ابن تيمية " ففيما أفتيا به صواب وحكمة لم يخالفا به شرع الله ، فيقول :– [4]

ألا قل في الطلاق لموقعيه بما في الشرع ليس له وجوب
غلوتم في ديانتكم غلوا يضيق ببعضه الشرح الرحيب
فدى ابن القيم الفقهاء كم قد دعاهم للصواب فلم يجيبوا
نحا فيما أتاه طريق علم نحاها شيخه الحبر الأريب [5]
وبين حكم دين الله لكن من الغالين لم تعه القلوب [6]

إنه ينعى هذه الآفة ، وتساقط نفسه حسرات على هذه المطلقة متمنيا أن تكون في أضيق نطاق ، وحين تستحيل العلاقة بين الزوجين ؛ كي تستقيم أمور الحياة .

---

(١) صرمت : قطعت .
(٢) شعوب : اسم للموت
(٣) ديوان الرصافي جـ ١ صـ ٥٧ .
(٤) السابق صـ ٥٧ ، ٥٨
(٥) أراد بشيخه الإمام أحمد بن تيمية رحمه الله .
(٦) الغالين : هم المتشددون في الدين المجاوزون للحد ، ولم تعه : لم تحفظه ، ولم تتدبره .

أما في قصيدته (المهجورة) فقد عرض لمأساة امرأة أخلصت في حبها لزوجها كأصدق ما يكون الإخلاص ، ووفت له كأعظم ما يكون الوفاء ، ثم هجرها الزوج متحولا عنها ، غادرا بحبها ، خائنا لوفائها ، ومبددا لأمنها وسرورها ، وقد بدأ قصتها بوصفها حسنا ، وبهاء ، ورقة وجمالا ، وأسى ولوعة ، أورد هذه المعاني في ثلاثة عشر بيتا نجتزئ منها هذه الأبيات :- (١)

وبيضاء أغناها عن الحلي ثغرها بسمطين من در مضيئين في الثغر(٢)
إذا ابتسمت في ظلمة اليأس أشرقا فعدنا من الآمال في أنجم زهر
تراءت فأما نفسها فحزينة وأما محياها فكالكوكب الدري
تبسم حينا ثم تجهش للبكا فمن لؤلؤ تبدي ومن لؤلؤ تذري

ثم أخذ يجسد مأساتها في تصوير رائع خلاب ، متخذا من قصتها رمزا للوفاء النادر والحب الصادق ، فمع أنه فزَّع قلبها ، وروع أمنها ، وسقاها كأس الهجر والحرمان ، لا زال حبه يعمر قلبها ، ولا زالت ذكراه تؤرقها كلما أشرقت شمس النهار، أو أجنها ظلام الليل ولا زالت . على ما نالها من حرقة وجفاء- ترضى منه بالقليل ، يقول :- (٣)

فقالت وقد ألقت على الصدر كفها تشد ضلوعا ينطوين على جمر
سقاني بكأس الحب حتى شربتها ولم أدر أن الحب ضرب من الخمر
فلما رآني قد سكرت بحبه صحا قلبه من حيث لم أصح من سكري
ألا إن قلبي اليوم إذ مسه الجوى وإذ مال بعلي في هواه إلى الغدر
ليفزع ممن يدعي الحب قلبه كما فزعت قُمْرِيَّة الروض من صقر(٤)
إذا أشرقت شمس تناسيت ذكره وإن جن ليل بت منه على ذكر
وإني على ما نابني من جفائه لأقنع منه بالخيال الذي يسري

(١) ديوان الرصافي جـ٢ صـ ٣٥٤ ، ٣٥٥ .
(٢) السمط : العقد ، والثغر : الخد .
(٣) ديوان الرصافي جـ ٢ صـ ٣٥٥
(٤) القمري : ضرب من الحمام ، والأنثى قمرية .

وتشتد حرقة شكواها ، ولوعة بكاها ، وتفيض دموعها ، و ينعقد لسانها عن الكلام ،إلا أنها عزمت على أن تظل وفية للعهد ، بارة بالوعد، حتى توارى في قبرها ، فيقسم "الرصافي" أن لو كان له من الأمر شيء لحاسب كل غادر، وعاقب كل هاجر، فيقول :- [1]

وقالت وقد كان النشيج يصدها عن القول إلا عن كلام لها نزر
سأحمل ما قد حملتني يد الهوى من الوجد حتي يحملوني إلى القبر
فقلت : أما والله لو أن لي يدا على كل حكم جاء من ظالم الدهر
لشددت في زجر المحبين إن جفوا وعاقبت منهم من يميل إلى الهجر

وبعد هذه الإطلالة الحانية على تلك النماذج البائسة ، والعطف على آلامها ، فلعلنا لا نبالغ إذا قلنا إنه ليس بعد ذلك نزعة إنسانية أرق وأحنى من هذه النزعة .

ففي قصيدته (العالم شعر) عالج موضوعا إنسانيا هاما هو موقف الإنسان حينما تغدر به الأيام ، ويتبدل به الحال ، فيهوى من قمة المجد إلى قاع الذل ، ومن عز السعادة إلى درك الشقاء، فيئن بالشكوى ويشعر بالحرمان ، ولعل رفق الشاعر به وتألمه له وتعاطفه معه مرده إلى الإنسان الذي يسكن جوانحه فيأبى عليه إلا أن يتعاطف معه وينتصر له .

وفي قصيدته (المطلقة) تناول مشكلة الطلاق باعتبارها قضية يترتب عليها هدم البيوت القائمة ، وتحطيم الأسر الآمنة ، وتشريد الأبناء وفشلهم في أكثر الأحيان فأصاب المحز، وأدرك بثاقب فكره مدى أهمية استقرار المجتمع ، ممثلا في المحافظة على نسيج الأسرة الواحد ، كما كشف من خلال قصيدته(المهجورة) عن أرقه وأشجانه حيال تلك المرأة التي هجرها زوجها ظالما فيها الإخلاص والوفاء ، فرق لشجوها ، وأنَّ لشكواها وأفصح عن نوازعها ، ولجأ إلى أسلوب القص والحوار ليلهب المشاعر وليبلغ أقصى درجات التأثير ، ولم يكن شعره مقصورا على تسجيل آرائه وخواطره فحسب بل كان يمتزج في أحايين كثيرة بحالات نفسه ووجدانه .

---

(١) ديوان الرصافي جـ ٢ صـ ٣٥٥ .

د- نبذ العصبية

وحينما نظر " الرصافي" فوجد أن هناك ضربا من ضروب العصبية الدينية والعنصرية الجنسية سرعان ما حاول نقضها ، وهدم جدارها الذي يفصل بين أبناء الأمة الواحدة ، وبخاصة ما بين المسلمين والمسيحيين ، لما بينهم من الصلات الوطنية ، وما ينبغي أن يسود بينهم من حقوق المواطنة ، فيقول : – [1]

أما آن أن تنسى من القوم أضغان فيبنى على أس المؤاخاة بنيان ؟

ويدعو جاهدا أن تطرح الخلافات الدينية ، وأن يسود التعاون بين الجميع ، وأن تقوم الرابطة بينهم على أساس من الوحدة الشاملة ؛ لأنهم أبناء أمة واحدة ، وهم سواء في التمتع بخيراتها، وتحمل أعبائها وتبعاتها فيدعو إلى تناسي الأحقاد والضغائن ، فيقول :– [2]

علام التعادي لاختلاف ديانة وإن التعادي في الديانة عدوان
وما ضر لو كان التعاون ديننا فتعمر بلدان وتأمن قطان
إذا جمعتنا وحدة وطنية فماذا علينا أن تعدد أوطان

ثم يتساءل ! عم يمنع هذه الأخوة ، مؤكدا على أن "القرآن ، والإنجيل" كتابان أنزلهما الله تعالى لإسعاد البشر ، فمن حدثته نفسه بالدعوة إلى التفرقة متعصبا لدينه ، أو مذهبه فدعواه باطلة ،لا يقرها سبيل شرع ، ولا يشد أزرها سند من دين ، فيقول :– [3]

فأي اعتقاد مانع من أخوة بها قال إنجيل كما قال قرآن
كتابان لم ينزلهما الله ربنا على رسله إلا ليسعد إنسان
فمن قام باسم الدين يدعو مفرقا فدعواه في أصل الديانة بهتان

أما الوطن فهو الأم الرءوم ، التي غذت أبناءها بدرها ، وهو المستقر والمستودع ومنبع العطف والحنان ، يحتوي أبناءه ، ويضفي عليهم العطف والحنان يقول :– [4]

(١) ديوان الرصافي جـ ١ صـ ١٣١ .
(٢) السابق صـ ١٣١ .
(٣) السابق صـ. ١٣١ .
(٤) السابق صـ ١٣١ .

مواطنكم يا قوم أم كريمة تدر لكم منها مدى العمر ألبان
ففي حضنها مهد لكم ومباءة وفي قلبها عطف عليكم وتحنان

وعن معنى الإخاء والمساواة يقول من قصيدة له بعنوان (يقولون) : – [1]

وما ترك الإسلام للمرء ميزة على مثله ممن لآدم ينتمي
فليس لمثر نقصه حق معدم ولا عربي بخسه فضل أعجمي
ولا فخر للإنسان إلا بسعيه ولا فضل إلا بالتقوى والتكرم

إنها دعوة للتحرر من عبء الاختلافات الدينية في إطار من روح الإخاء والتعاون والمساواة ، وما يبذره المفسدون من بذور الشقاق بين عناصر الأمة باسم الدين والدين منه براء ؛ إذ الدين يقوم في جوهره ، على التسامح ، وحرية العقيدة ، وعدم الإكراه .

ومع هذه النداءات المخلصة لنبذ التعصب كان "الرصافي" محبا للإسلام ، زائدا عن حماه ، مدافعا عن قضاياه ضد افتراءات المستشرقين من الغرب الذين ادعوا ظلما أن الإسلام يصد أهله عن التقدم ! فأجابهم بأن هذا محض كذب وافتراء ! إذ كيف تقدم المسلمون الأوائل ؟ ولئن كان التأخر حاصلا الآن فهذا ليس عيبا في الإسلام بقدر ما هو عيب في أهله لأن العلم في الإسلام من أهم فرائضه ، والأمم لا تسود بغير العلم ، يقول :–[2]

يقولون في الإسلام ظلما بأنه يصد ذويه عن طريق التقدم
فإن كان ذا حقا فكيف تقدمت أوائلهه في عهدها المتقدم ؟
وإن كان ذنب المسلم اليوم جهله فماذا على الإسلام من جهل مسلم؟
هل العلم في الإسلام إلافريضة وهل أمة سادت بغير التعلم

---

(١) السابق ص ١٣٠ .

(٢) السابق ص ١٢٨ .

خامسا : حـدودهـا

تغلغلت في شعر "الرصافي"روح إنسانية واسعة ، وعاطفة محبة شاملة ، لا لأبناء وطنه فحسب بل للبشرية كلها ، إذ لم يقف عند حدود وطنه الصغير بلاد العراق ، وإنما تعداه إلى وطنه الكبير بلاد العروبة ، ولم يقصر مشاعره الإنسانية الفياضة على مجتمعه العراقي ، أو أمته العربية فقط ، بل راح يحلق ويطوف بإنسانيته في آفاق عالمية بعيدة ٠

وقد تجلت حدود إنسانيته في عدة مواطن ، منها : –

١ – أشجان الوطن الكبير

لم يقف "الرصافي "عند حدود وطنه الصغير العراق كما أشرنا ، وإنما تعداه إلى وطنه الكبير بلاد العروبة ، فلكم كان يحزنه ويشجيه أن يرى يد الاستعمار تعمل على غرس الأحقاد ونشر التفرقة بين أوطانه ، فنادى بالاتحاد كضرورة من ضرورات البقاء ، ورأى أن الخلاف بين العرب خلاف غير طبيعي بين الأخ وأخيه [١] لأن أواصر القربى على الأرحام تجمع بينهم ، ووشائج الإسلام على التآخي توحدهم ، يقول :– [٢]

فنحن على الحقيقة أهل قربى وإن قضت السياسة بالبعاد
وما ضر البعاد إذا تدانت أواصر من لسان واعتقاد
وإن المسلمين على التآخي وإن أغرى الأجانب بالتعادي

ولطالما هب يدافع عن قضاياها ضد أعدائها من المستعمرين فهو يأسى لاعتداء الإيطاليين على " ليبيا" وقد وقعت فريسة للاستعمار، فحاول جاهدا أن يثير نخوة العرب والمسلمين بأن " ليبيا" قد وقع بها البلاء ، وهي تستغيث بهم لنصرتها ، ويشارك أهل " برقة" آلامهم ، وقد عز عليه مصابهم ، وغل الجميع أيديهم عن نصرتها ، فقال :– [٣]

يعز علينا أهل برقة أنكم تدور عليكم بالدمار حمى الحرب

(١) ينظر معروف الرصافي حياته وبيئته وشعره د / بدوي طبانة صـ ١٤٢

(٢) ديوان الرصافي جـ ١ صـ ١٣٤ ، ١٣٥ ٠

(٣) السابق جـ ٢ صـ ٤٨١ ٠

ويعتصر الحزن قلبه على إثر حريق شب في " دمشق" فوقف يندب أهلها ، ويحث على التبرع السخي لمصابيها ، والبذل الكريم لضحاياها ، ويدعو لإغاثة منكوبيها ، فيقول في قصيدته (دمشق تندب أهلها) :- [1]

بكت في ظلام الليل تندب أهلها بصوت له الصخر الأصم يلين
وباتت وقد جل المصاب حزينة لها في ضواحي الشام منه أنين

وفي خضم تلك المحن والأرزاء يعاوده ألم القهر والاستعباد ، الذي خلفه وقوع سوريا تحت الاحتلال وقد بدت كالأم الثكلى تئن لما أصابها ، وتستصرخ العرب كي يهبوا لنجدتها فيشدو بحالها و يطلق عقال لسانه في ندبها ، ويقول على لسانها :- [2]

أنا البلدة الثكلى دمشق ابنة العلى أما أنت في مغنى دمشق قطين [3]
ألم تر أبنائي يساقون للردى فمنهم قتيل بالظباء سجين
فأين أباة الضيم من آل يعرب ألم يأت منهم ناصر ومعين ؟

ويرفف بجناحيه في سماء " تونس " ويخفق قلبه لها ، ويعيد إلى الأذهان حقيقة كادت تنسى مع الأيام ، وهي أن العرب أمة واحدة ، مهما تناءت بهم الديار ؛ لأن الإسلام يجمع شملهم ، والدين يحوي شتاتهم ، واللغة توحد صفهم ، وكلهم في العروبة أبناء أب واحد إليه ينتسبون هو " نزار بن معد بن عدنان" فيقول :-[4]

ويجمعهم وإياك انتساب إلى من خص منطقهم بضاد
وما ضر البعاد وإن تدانت أواصر من لسان واعتقاد
أتونس إن مجدك ذو انتماء إلى عليا نزار أو إياد

(١) ديوان الرصافي جـ ٢ صـ ٤٥٤ .
(٢) السابق صـ ٤٥٥ .
(٣) الثكلى من النساء التي فقدت وحيدها ، وقطين : بمعنى قاطن .
(٤) ديوان الرصافي جـ ١ صـ ١٣٤ .

وكم " للرصافي " من قصائد يزخر بها ديوانه تناول فيها بلاد العروبة [١] وكأنه الابن البار بالأمة على اتساعها ، تجلت في شعره إنسانيته الشاملة التي وهبها للبائسين من أبناء أمته وعروبته ، فلم يقف شاعريته على بلاد العراق وحدها ولم يكن شعره مجرد شاهد على عصره المفعم بالصراع والأحداث المثيرة في العراق فحسب بل في الوطن العربي كله (إذ لا نجد شاعرا من شعراء العربية في سائر عصورها أهمه المجتمع الذي يحيا بين ظهرانيه ، ما أهمه الرصافي الذي هتف بأسباب علائه وأشاد بعوامل ارتقائه ، وبكى ما يجد من تعاسته وشقائه) [٢] ولذا قال مدلا بهذا الحب ، وكاشفا عنه :- [٣]

أشربت حب بلاد ما نشأت بها إلا لأدفع عنها كل عدوان
أخلصت حبي لها حتى نسيت به نفسي وأهلي وأحبابي وخلاني

ب- التعاطف الإنساني الكبير ٠

ولم يقف "الرصافي" عند يتامى المسلمين ، وأراملهم باكيا ما أصابهم ، ونادبا ما حل بهم، بل ذهب يشارك يتامى "الأرمن " بؤسهم حين أنزل عليهم الترك جام غضبهم في فتنة (أطنة) [٤] التي راح يصف من خلالها أشجان أم باتت في توجع وأنين بسبب بكاء طفلها الذي حرم بموت الأب العطف والحنان وفقد بموته بهجة الطفولة ، فيقول :- [٥]

رمت مسمعي ليلا بأنة مؤلَم فألقت فؤادي بين أنياب ضيغم

---

(١) من هذه القصائد في طريقي إلى حلب جـ ١ صـ ٢٦٢ ، وذكرى لبنان جـ ١ صـ ٢٣٨ ، وفي إيلياء جـ ١ صـ ١٤٠ ، والأمة العربية جـ ١ صـ ١٣٩ وفي زحلة جـ ١ صـ ٧٨ وبيروت والتباريس جـ ١ صـ ٢٥٣ وغيرها ٠

(٢) معروف الرصافي د / بدوي طبانة صـ ١٥٨ ٠

(٣) ديوان الرصافي جـ ١ صـ ١٧٤ ٠

(٤) أطنة : اسمها بالعربية "أذنة" وهي قصبة إقليم بأسيا الصغرى تقع وسط سهل فسيح من نهر " سيحان "كان يعرف قديما باسم نهر " سرس" وبها جسر قديم بناه " يوستنيانوس" وبها مسجد كبير " أولو جامع" بناه خليل بك من قبيلة "رمضان أوغلي" يبلغ عدد سكانها ٣٠٠٠٠ نسمة منهم ١٣٠٠٠ ألف من المسلمين ، والباقي من الأرمن٠ دائرة المعارف الإسلامية أصدرها بالعربية ا / أحمد الشنتناوي ، إبراهيم زكي خورشيد ، جـ ٢ صـ ٣١٣ طبع لجنة التأليف والترجمة ١٩٣٣ م ٠

(٥) ديوان الرصافي جـ ١ ٣٩ ٠

وباتت توالي في الظلام أنينها وبت لها مرمى بنهشة أرقم (١)

إذا بعثت لي أنة عن توجع بعثت لها أنة عن ترحم

هذه الأم صاحبة الأنين ليست من ساكني القصور المشيدة ، وإنما يجمعها بهذا اليتيم بيت هوت به زلازل الخطوب إلى قاع الشقاء ، وأم شقق الدمع وجهها ، وأهزل الحزن جسدها ، يبكي يتيمها جوعا ، وهي لا تملك إلا أن تعينه ببكائها ، يقول : – (٢)

وبيت بكت فيه الحياة نحوسه ولاحت بوجه العابس المتجهم

به ألقت الأيام أثقال بؤسها فهاجت به الأحزان فاغرة الفم

فألفيت وجها خدد الدمع خده ومحمر جفن بالبكا متورم

لقد جثمت فوق التراب وحولها صغير يرنو لها بعيني ميتم

بكى حولها جوعا فغذته بالبكا وليس البكا إلا تعلة معدم (٣)

ويسأل الطفل أمه عن أبيه الغائب! لماذا غاب ؟ وهل سيعود في المساء ومعه الطعام؟ ولكن الأم تنهمر في البكاء وتشتعل أنفاسها حرقة ، وتقطع على يتيمها سبل الآمال في عودة أبيه ، إذ هو في سفر بعيد ، لا يرجى له قدوم ، وما تمسكت بعده بالحياة ولا حرصت على البقاء إلا من أجله ، ولولاه لآثرت الموت ، يقول :– (٤)

فقال لها لما رآني واقفا أردد فيه نظرة المتوسم (٥)

سلي ذا الفتى يا أم أين مضى أبي وهل هو يأتينا مساء بمطعم ؟

فقالت له والعين تجري غروبها وأنفاسها يقذفن شعلة مضرم (٦)

أبوك ترامت فيه سفرة راحل إلى الموت لا يرجى له يوم مقدم

ولولاك لاخترت الحمام تخلصا بنفسي من أتعاب عيش مذمم (٧)

---

(١) الأرقم : أخبث الحيات ، وأطلبها للناس .

(٢) ديوان الرصافي جـ ١ صـ ٤٠ .

(٣) التعلة : االمراد بها البكاء مرة بعد مرة ليعلل نفسه بذلك.

(٤) ديوان الرصافي جـ١ صـ ٤١ .

(٥) المتوسم : المتفرس .

(٦) غروبها : دموعها .

(٧) الحمام : الموت ، ومذمم : مذموم .

ويشاطرها "الرصافي" الآلام ، ويشاركها الأحزان ويتوجه إليها آسيا ومواسيا وقد رق فؤاده ، ولان قلبه لهذا الطفل الذي قتل والده باسم الدين والدين من قتله براء ، بل بسبب حمقى الأرمن وجهلاء المسلمين ، يقول : – [1]

أمريم إن الله لا شك ناقم من القوم في قتل النفوس المحرم

وظلت لها أبكي بعين قريحة جرت من مآقيها عصارة عندم [2]

وهذه القصيدة تتيح لنا أن نستشف من خلالها اتساع العنصر الإنساني عند الرصافي فهو يتنازل عن حواجز الدين واللغة ، ويتجاوز آفاق الزمان والمكان ليقف في صف الأرمن وهو في ذلك يسمو بالجنس البشري على الفواصل المحلية التي تفصل بين أفراده [3]

جـ – الاستعمار والحرية

وتتسع نظرة "الرصافي" لتحلق في آفاق أبعد فيقف إلى جوار قضايا الشرق مدافعا عن حقوقه المسلوبة ، فينظر إلى المحتل الغاصب الذي يمتص دماء الشعوب ويغتصب منه الموانئ ويشحن فيها سفنه ، ويستخرج من باطن أرضه العامرة بالمعادن والمناجم الخيرات الكامنة فيها ، ويستأثر بما تجود به ، ويحرص على إثارة الفتن وإشعالها بين أهله ليعوقهم عن التقدم والرقي ، وهو سلوك مشين يتنافى مع أبسط قيم الإنسانية ويتعارض مع دعاوى الحرية والعدالة التي يتشدق بها الغرب صباح مساء ، فيقول :– [4]

غاصبا منه الموانى شاحنا فيه السفائن

حافرا فيه المعادن نابشا فيه الدفائن

فهو يمتص دماء الشرق من كل الأماكن

أنهم يقولون ما لا يفعلون ، وعودهم جمة ، ووفاؤهم معدوم ، يخدعون الشعوب

(١) ديوان الرصافي جـ ١ صـ ٤١ .

(٢) المآقي : جمع مؤق ، وهي طرف العين ، والعندم : البقم شجر له ساق أحمر يصبغ بطبيخه .

(٣) ينظر دراسات في الأدب العربي والتاريخ صـ ٦٨ .

(٤) ديوان الرصافي جـ ١ صـ ٤١ .

بكلماتهم المعسولة ، وقلوبهم كقلوب الذئاب ، وليس هناك من سبب لهذا العداء ، ولا ذنب للشرق . إن كان للشرق ذنب . سوى ثقته فيهم ، وانخداعه بوعودهم فيقول : – [1]

فعلام الغرب لا ينفك للشرق يضاغن
كم يسوم الغرب أهل الشرق خسفا ويخاشن !

ويدعو إلى الحرية ويجاهد في سبيلها ويراها حقا إنسانيا مشروعا ،إذ هو القائل :– [2]

وتكره نفسي كل عبد مذلل فقد كرهت حتى الطريق المعبدا

ولذا فهو يأسى لكل موطن تسلب فيه الحريات فيبكي الحرية في الهند مخاطبا الزعيم الهندي "مولاي محمد علي[3]" ومعاتبه ! كيف تستسلم الهند ذات العدد الغفير لفئة قليلة من المستعمرين ؟ فيقول في قصيدته الرامزة والتي سماها (الفيل والحمل) :– [4]

إليك زعيم الهند أورد ههنا سؤالا له أرجو الجواب مفصلا
إذا ما سمعت الفيل في قول قائل تخيلت فيلا بالحديد مكبلا
تزجيه كف الأجنبي مسخرا فيمضي بأعباء الأجانب مثقلا

ويربط بين "الهند" و "العراق" في طلب الحرية ، فإذا ما استطاعت "الهند" التي رمز إليها "بالفيل" أن تتحرر وتنفض عن وجهها رغام الاستعمار ، فإن العراق التي رمز إليها "بالحمل" ستجِدُّ في تحقيق حريتها ، وإلا فإن لم يستطع "الفيل" النجاة بنفسه فماذا عسى أن يفعل "الحمل" وهو أقل منه قوة ، وأكثر منه ضعفا ، فيقول :– [5]

ولو لم تكن بالفيل عندي علاقة لما رمت عن هذا جوابا مفصلا
لنا حمل وهو العراق نظنه غدا من وراء الفيل للذئب مأكلا
فإن ينج هذا الفيل من قيد أسره نجونا وإلا أصبح الأمر معضلا

---

(١) ديوان الرصافي جـ ٢ صـ ٤٨٣ .

(٢) ديوان الرصافي جـ ١ صـ ٧٧ .

(٣) كان الزعيم الهندي " مولاي محمد على " في مأدبة أقامها له الأستاذ / عبد العزيز الثعالبي " عند مروره ببغداد سنة ١٩٢٩ م وقد حضرها "الرصافي " وأنشد قصيدته (الفيل والحمل) ينظر ديوان الرصافي جـ ٢ صـ ٤٥٣ .

(٤) السابق صـ ٤٥٣ . (٥) ديوان الرصافي جـ٢ صـ ٤٥٣ .

سادسا:الجانب الفني في الشعر الإنساني

أولا : المطالع والبدايات

تتخذ معظم قصائد "الرصافي" الإنسانية سمة ظاهرة إذ توحي مباشرة بالموضوع وتشير إليه ، وقد جاء ت كثير من قصائده على هذا النحو ففي قصيدته (أم اليتيم) تحدث في مطلعها عن أم اليتيم وما تعانيه من آلام جعلته يألم لها أشد الألم ، وذلك حين قال :- (١)

رمت مسمعي ليلا بأنة مؤلم فألقت فؤادي بين أنياب ضيغم

وباتت تولي في الظلام أنينها وبت لها مرمى بنهشة أرقم

كذلك في قصيدته (المطلقة) التي بدأها بوصف تلك المرأة التي تبدل حالها وتغير لونها وبدت شاحبة الوجه ، مشوهة الحسن لما أصابها ، فقال :- (٢)

بدت كالشمس يحضنها الغروب فتاة راع نضرتها الشحوب

منزهة عن الفحشاء خود من الخفرات آنسة عروب

كذلك قصيدته (اليتيم في العيد) والتي بدأها بالحديث عن صباح يوم العيد بحركته وضجيجه وألوانه ، وكيف يختال فيه الأغنياء ، وينزوي فيه الفقراء ، فقال :- (٣)

أطل صباح العيد في الشرق يسمع ضجيجا به الأفراح تمضي وترجع

كذلك قصيدته (بين تونس وبغداد) فقد بدأها بما يوحي بالمودة التي تربط بين القطرين، وانتسابهما إلى لسان واحد ولغة واحدة ، وإن فرقت بينهما السياسة ، فقال :- (٤)

أتونس إن في بغداد قوما ترف قلوبهم لك بالوداد

ويجمعهم وإياك انتساب إلى من خص منطقهم بضاد

وفي قصيدته(في سبيل الوطن) دعوة صريحة للتعاون والإخاء ، وبيان أن الوقت قد حان لنسيان الضغائن والأحقاد ؛ كي تبنى العلائق على أسس من الأخوة الصادقة فيقول :- (٥)

---

(١) ديوان الرصافي جـ ١ صـ ٣٩ .
(٢) السابق صـ ٥٤ .
(٣) السابق صـ ٥٨ .
(٤) السابق صـ١٣٤ .
(٥) السابق صـ ١٣١ .

أما آن أن تنسى من القوم أضغان فيبنى على أس المؤاخاة بنيان

والأمثلة على ذلك كثيرة منها (الفقر والسقام)[١] و(في سبيل حرية الفكر)[٢] و (الحياة الاجتماعية والتعاون)[٣] و(دار الأيتام)[٤] و(نحن في بغداد) [٥] و (في حفلة الميلاد النبوي)[٦] و(إلى العمال)[٧] وغيرها ، وهي تدل على بصر الشاعر بما هو بصدد الحديث عنه من ناحية ، إذ يشير بداية إلى ما هو خائض فيه ومستفتح بابه ،كما تدل على وضوح الجانب الإنساني في فكره ، وسيطرته عليه من ناحية أخرى، فحرص على مواجهه غرضه مباشرة ، دون مقدمات تتعارض معه ، أو تتنافى مع طبيعته ٠

وإن كانت هناك مطالع أخرى لم يواجه من خلالها غرضه مباشرة كما في قصيدته (إلى الأمة العربية) إذ قد بدأها بالحديث عن الليل وطول الأسى والهموم التي أرقته فاعترته الأحزان واستبدت به الآلام ، ولم يسمع في ليله الحالك سوى أنات بكائه التي قطع بها صمت الليل ، وسكونه الموحش ، فقال :- [٨]

هو الليل يغريه الأسى فيطول فيرخي وما غير الهموم سدول [٩]
أبيت به لا الغاربات طوالع على ولا للطالعات أفول

ثم أخذ يواجه الغرض الذي من أجله نظم القصيدة فقال :- [١٠]

بكيت على كل ابن أروع ماجد له نسب في الأكرمين جليل
يليح من الضيم المذل بغرة لها البدر ترب والنجوم قبيل [١١]

ولكن مثل هذه المطالع قليلة إذا قيسا بسابقتها ٠

(١) ديوان الرصافي جـ ١ صـ ٩٤ ٠ (٢) السابق صـ ٥٠ ٠ (٣) السابق صـ ٨٢ ٠ (٤) السابق صـ٩٣ ٠
(٥) السابق صـ١٦١ ٠ (٦) السابق صـ ١٧٨ ٠ (٧) السابق صـ١٨٠ ٠ (٨) السابق جـ ٢ صـ ٣٩٦ ٠
(٩) يغريه : يحضه ، أي أن االأسى يحض لليل على الطول فيطول ٠
(١٠) ديوان الرصافي جـ ٢ صـ ٣٩٦ ٠ (١١) يليح : أي يخاف ويحاذر ٠

ثانيا : الوحدة الموضوعية والفنية

وإذا ما نظرنا إلى الوحدة في قصائده ذات الطابع الإنساني وجدنا معالم الوحدة تفصح عن نفسها ، ورأينا ارتباطا وثيقا بين أجزاء القصيدة عنده [١] .

وإنما كانت الوحدة بارزة في قصائده ذات الطابع الإنساني ؛لاشتمالها على كثير من العناصر القصصية والدرامية ؛ التي تتيح لمعالم الوحدة أن تتحقق، بل لعلنا لا نبالغ إذا قلنا إنه إذا كان هناك من فنون الأدب ما يستحق أن يقاس بمقياس الوحدة فإن الشعر الذي يحوي العناصر القصصية هو أولى هذه الفنون [٢]

وقد بدت هذه الوحدة في شعره ، وكان حريصا على التزامها إلى جانب الوحدة الفنية التي أشار إليها في كثير من قصائده وذلك حين قال في قصيدته (أنا والشعر) :- [٣]

إذا انتظمت أبياته في قصائدي ترى كل بيت ممسكا بقرينه

ولو عدنا مثلا لقصيدته (اليتيم في العيد) لنتبين فيها حقيقة هذه الوحدة ،لرأينا أنه بدأها بالحديث عن صباح يوم العيد وما فيه من مظاهر البهجة والسرور وكيف يختال فيه أبناء الموسرين بثيابهم الموشاة ، وينزوي فيه أبناء الفقراء بأطمارهم البالية فقال :- [٤]

أطل صباح العيد في الشرق يسمع ضجيجا به الأفراح تمضي وترجع
صباح به يختال بالوشي ذو الغني ويعوز ذا الإعدام طمر مرقع

ثم أخذ الشاعر نفسه بالتجوال في ساحة العيد ، فسمع من مظاهره أصوات "المزامير" تشجي السامعين ، وقرع الطبول تطرب الآذان ، وكان من بين من رأى صبيا في عمر الزهور نحيف الجسم بدت عليه كآبة اليتم لا يحركه قرع الطبل أو صوت المزمار .

وقفت أجيل الطرف فيهم فراعني هناك صبي بينهم مترعرع
على كثرة قرع الطبل تلقاه واجما كأن لم يكن للطبل ثمة مقرع

(١) ينظر قضايا النقد الأدبي د / بدوي طبانة صـ ٨٨ دار المريخ للطباعة الرياض ١٤٠٤ هـ ١٩٨٤ م .

(٢) ينظر السابق صـ ١٨٤ ، وبناء القصيدة في النقد العربي القديم في ضوء النقد الحديث د / يوسف حسين بكار صـ ٣٢٤ ط ١ دار الأندلس للطباعة والنشر د / ت .

(٣) ديوان الرصافي جـ١ صـ ١٩٨ .

(٤) ديوان الرصافي جـ ١ صـ ٥٨ ـ ٦٣ .

فتميل به إنسانيته نحو استطلاع أمره ، فيقتفي أثره ، ويدنو من داره ، فيسمع بكاء حارا، وهنا أخذته الحيرة أيرجع من حيث جاء ؟ أم يطرق الباب ليستجلي الحقيقة؟ ويتبين الأمر ؟ و كان تطلعه إلى المعرفة أكبر ، فدنا من الدار واقترب ٠

وعدت فأبصرت الصبي معرجا ليدخل دارا بابها متضعضع
فحرت وعيني ترمق الباب خلسة وللنفس في كشف الحقيقة مطمع

وإذ بعجوز هي جدة هذا اليتيم لأمه فيسألها عن أمر اليتيم وحقيقة هذا الأنين فتعجبت لسؤاله في أول الأمر! ثم شرعت في الجواب عن مأساة هذه الأسرة المفجوعة كيف شقيت ابنتها بموت زوجها ، وبفقد أخيها بعد موت زوجها ، فصارت بموت زوجها إلى التعاسة ، وبفقد أخيها إلى الشقاء ٠

فقالت أعن هذا التي طال نحبها سألت فعندي شرح ما تتوقع
ألا إنها سلمى تعيسة معشر من الصيد أقوت دارهم فهي بلقع

وبعد أن أوردت له من أسرار البكاء والنحيب ، وأسباب التوجع والعويل ، بكاء على فقد الحبيب وجزع على أخيها القابع في قاع السجن ، وأنين لحال هذا اليتيم ، عاد باكي الدمع ، موجع القلب ، متمنيا أن لو غاب يوم العيد واحتجب كي لا يجدد الأحزان على المحزونين ، ويتذكر موعدا لبعض أصحابه فيتوجه إليه ، ولم يتردد في أن يخبرهم بقصة هذا اليتيم وأمه وخاله ، ولما كان ليس ذا بال بالنسبة إليهم ، واكتفوا بمجرد إظهار التأفف وعدم الرضا غاظه ذلك منهم ؛ لأن الأمر أكبر من ذلك وأخطر مذكرا إياهم بغيبة العدالة التي كانت تشع ضياؤها في بلادهم ، فمن العار إذا أن يرضوا بالذل ويخضعوا للضيم ٠

فعدت وقلبي جازع متوجع وقلت وعيني ثرة الدمع تهمع
ألا ليت يوم العيد لا كان إنه يجدد للمحزون حزنا فيجزع

ثم أخذ ينفرهم من حياة الهوان التي يحيونها ، وأولى بهم أن ينهضوا ليدفعوا عن أنفسهم الذل والهوان مذكرا إياهم بماضي مجدهم وسابق عزهم ٠

وهكذا نرى تلك القصيدة ـ على طولها ـ ذات موضوع واحد تلاحمت فيها الأفكار وترابطت فيها الأبيات ، وتوافرت فيها وحدة الروح ، وحرارة المشاعر ، وتجانست فيها خواطره وأفكاره وصوره ، وجاء أسلوبه فيها موحدا ، وهي وإن تعددت مشاهدها إلا أن انتقالات الشاعر كانت طبيعية ومشدودة إلى الغرض الأصلي الذي هو : وصف معاناة البائسين ، وهو يلتزم هذه الوحدة في قصائده ذات الطابع الإنساني كما في قصائده (أم اليتيم) و (المطلقة) و(الفقر والسقام) و(دار الأيتام) و(اليتيم المخدوع) وغيرها ٠

وهو يتجه من خلال هذه القصائد إلى الإفصاح عن مشاعره و يستمد صوره من وحي الأحداث التي أحاطت به فانطبع شعره بهذا الاتجاه الإنساني ، و جاءت قصائده نماذج حية للوحدة الموضوعية والفنية معا ، بما انتظمها من حالة شعورية ودوران أفكارها حول موضوع واحد في ترابط بين عناصرها من فكر ومشاعر وعاطفة وخيال في وحدة تامة بدت من خلالها القصيدة عملا فنيا متكاملا يسوده الانسجام والالتئام [1]

ثالثا : العاطفة

وفي مجال الحديث عن العاطفة نراها عنده متدفقة حارة ، حيث كان يذوب في وهج الحس والانفعال ، ويتحرق ألما وكمدا على الضعفاء والبائسين ، ويتلظى بنار الحرمان التي تلظى بها كل معدم ، واصطلي بها كل معوز ، ففاضت عاطفته إشفاقا ورحمة بالبائسين وشاركهم أحزانهم وبلاياهم حتى قال مصرحا بذلك في خطابه للأرملة المرضعة :– [2]

وقلت يا أخت مهلا إنني رجل أشارك الناس طرا في بلاياها

وقد استطاع أن يبثنا لواعج نفسه ، وما يحتدم فيها من خطرات نفسية ، وزفرات وجدانية ، فقد هاله ما رأى في الحياة من بؤس ومآس إنسانية يعاني منها أبناء وطنه فعاش

(١) ينظر تطور القصيدة الغنائية في الشعر العربي الحديث د / حسن أحمد الكبير صـ ٥٧٧ ، ٥٩٢ ٠

(٢) ديوان الرصافي جـ ١ صـ ٢٠٩ ٠

آلام أمته وكوارثها ، وجعل من شعره مبضعا يجتث به القبيح من الأخلاق والعادات ، وكان له من عاطفته الرقيقة خير معين على دقة التعبير ، وروعة الأداء ، وهو يصور حال الضحايا والمنكوبين ، وقد مكنته تلك العاطفة من النفاذ إلى الأعماق . [1]

وكما تجلت عاطفته في حديثه عن الضحايا والبائسين تجلت أيضا في حديثه عن وطنه وبلاده ، فما من مناسبة حزينة كانت أم غير حزينة إلا ويأتي الاهتمام بالوطن من خلالها في المقام الأول ، ويطفو حديث الوطن على سطحها سواء أكان ذلك في القصائد التي يهيمن عليها الجانب الإنساني ، أو الجانب الذاتي .

ففي قصيدته (السجن في بغداد) يحكي لنا من موقع الظلم والأسى ، مشاهد القهر والغبن والإذلال ، ثم لا يلبث أن يتخذ من هذا الظلم دعوة للنهوض والتحرر ، فيقول :- [2]

نهوضا نهوضا أيها القوم للعلى لتبنوا لكم بنيان مجد موطد

كذلك في قصيدته (اليتيم في العيد) فما أن تأثر بهذا اليتيم وأمه الثكلى التي كشفت مناسبة العيد عن بؤسهما ، وبخاصة بعد سجن شقيق الأم ظلما ، حتى صنع من هذا الظلم دعوة للمقاومة والتحدي ، فقال :- [3]

نهوضا إلى العز الصراح بعزمة تخر لمرماها الطغاة وتركع
ألا فاكتبوا صك النهوض إلى العلا فإني على موتي به لموقع

إن عاطفة " الرصافي " الصادقة لونت شعره بهذا اللون القاتم الذي يكشف في أمانة وصدق عن نفسيته الحزينة ، ومزاجه الكئيب المضطرب ؛ لشعوره بالبائسين من حوله حتى تقمص شخصياتهم تقمصا عجيبا ، وأصبح واحدا منهم ، كما لم ينس عاطفته تجاه وطنه وأمته وتلك هي المعايشة الدقيقة التي تنبع من العواطف الفياضة ، والمشاعر الصادقة .

(١) ينظر معروف الرصافي بين الأصالة والمعاصرة صـ ٣٢١ .

(٢) ديوان الرصافي جـ ١ صـ ٤٦ .

(٣) السابق صـ ٦٣ .

رابعا : الصياغة الشعرية

نريد بالصياغة الشعرية هنا ما يشمل الأسلوب والأخيلة وغيرها وهي قريبة مما يقوله بعض الدارسين السبك العام للقصيدة ، والذي يشمل الموسيقى إلى جانب الصياغة.

١ – الأسلوب

وقد امتاز أسلوب "الرصافي" بالاستقلال الفني ، من السهولة والوضوح ، كما امتازت لغته بالعذوبة والرقة والسلاسة، وإذا تساءلنا عن سر هذا الاستقلال الفني وجدناه يكمن في محاولة الشاعر إيصال رسالته وفلسفته إلى الناس بأوضح عبارة [١] كما أفصح هو عن ذلك حين قال :[٢]

إذا أنا قصدت القصيد فليس لي به غير تبيان الحقيقة مقصد

فلزم هذا الطريق ؛لأن تبيان الحقيقة غايته ، وكشفها مقصده ؟ لذا لا حظنا استقلاله بعبارة فنية، ترك فيها الجزالة ، والإغراب ،إلى لغة شعرية سهلة واضحة، حتى ليقصد إلى لغة خاصة به ؛ لأنه يريد أن يحرك شعره النفوس والقلوب نحو إخوانه وأبناء مجتمعه ، لما يجمعهم به من ألم إنساني مشترك.

وكان له قدرة فائقة على نظم ذلك الشعر العذب السلس الذي تفجر من ينابيع شاعرية صافية لا ينضب معينها ، ولا يقف تيارها عن السيولة والانحدار في دعة لا تحس معها شيئا من الاستكراه ، وهو يخاطب قلبك ويحدث مشاعرك ، ولعله فعل ذلك فرارا من مظنة التصنع ، وجنوحا عن صنعة التكلف التي لا تليق بأمثاله من الذين يتحدثون للناس بآلام قومهم في إيضاح وبيان [٣] إذ هو القائل :– [٤]

وأجود الشعر ما يكسوه قائله بوشي ذا العصر لا الخالي من العصر

---

(١) ينظر دراسات في الأدب العربي الحديث ومدارسه د / محمد فبد المنعم خفاجي جـ ١ صـ ١٥١ .

(٢) ديوان الرصافي جـ ١ صـ ٧٤ .

(٣) ينظر معروف الرصافي د / بدوي طبانة صـ ٢٥٠ . (٤) ديوان الرصافي جـ ١ صـ ٩٣ .

وقد لا حظ د/ بدوي طبانة على عبارة "الرصافي" أنه لم يتحرز فيها من آثار العامية ففي قصيدته (في حفلة الميلاد النبوي) أخذ يشرح عناصر الرسالة المحمدية من وجهة نظر إنسانية فأطلق لنفسه العنان حتى لكأننا نقرأ قطعة نثرية تتخللها بعض الكلمات العامية [١] كما في قوله :– [٢]

وشفاهم بهديه من ضلال كل فرد منهم به مغلول

وقوله :– [٣] **حيث عدنا وفي النهوض قعود ورجعنا وفي الصعود نزول**

وقوله :– [٤] **والدعاوى في الحق منا كبار طال فيها التزمير والتطبيل**

وكذلك قوله في قصيدة رثى بها الشيخ "مهدي الخالصي" :– [٥]

قد أبت هذه السياسة إلا أن تكون الغشاشة الدساسة

لو أردنا إفاضة في هجائها لكتبنا لكم بها كراسة

وهكذا كثير من قصائده ! لو عمدنا إلى كثير منها وحاولنا تحويلها إلى مقالات من النثر لأمكننا ذلك ، ولانقادت إلينا طائعة ، وقد لاحظ هو نفسه ذلك واعترف به حين قال :– [٦]

وأرسلته نظما يروق انسجامه فيحسبه المصغي لإنشاده نثرا

وانطلاقا من ذلك كان قليل الاحتفال بالصور الخيالية والهيام بالبديعيات ، وهي مزية جديرة بالتقدير، إذا عرفنا أن كثيرا من الشعراء بالغوا في استخدام هذه الصور ، والتفنن فيها ، ولكن "الرصافي" وهو الشاعر المطبوع يدعو المعنى فينقاد له ، فيغنيه ذلك عن التكلف في طلب البديع [٧] فحق له أن يقول :– [٨]

لست بالشاعر الذي يرسل اللفظ جزافا لكي يصيب جناسه

أنا لا أبتغي من الشعر إلا ما جرى في سهولة وسلاسة

---

(١) معروف الرصافي د / بدوي طبانة صـ ١٥١ ٠ (٢) ديوان الرصافي جـ ١ صـ ١٧٩ ٠

(٣) السابق صـ ١٧٩ ٠ (٤) السابق صـ ١٧٩ ٠

(٥) السابق جـ ٢ صـ ٣١٣ ٠ (٦) السابق جـ ١صـ ٥١ ٠

(٧) ينظر معروف الرصافي د / بدوي طبانة صـ ٢٥٣ ٠ (٨) ديوان الرصافي جـ ٢ صـ ٣١٣ ٠

وعلى الرغم من ذلك لم يخل شعره من هذه الصور ، ولا مأخذ عليه في استخدامها ما دام قد برئ شعره من مظنة التكلف ، وسلم من التعسف ، ولأن الذي وقع له من الصور زاد معانيه بهاء

، وأساليبه إشراقا، ونحن حين نستعرض شيئا منهالا يساورنا شك في أنه قد استكمل لفنه قوة الأسلوب وفخامة المعنى ، فمن ذلك قوله في بيت اليتيم :- [١]

به ألقت الأيام أثقال بؤسها فهاجة به الأحزان فاغرة الفم

إذ شبه الأحزان والهموم ونيلها من اليتيم بالحيوان المفترس الفاغر الفم تهيؤا للانقضاض على فريسته ، وهي صورة خيالية معبرة .

كذلك تشبيه نظرته لليتيم وتعاطفه معه بنظرة العابد الخاشع ، في قوله :- [٢]

ورحت أعاطيه الحنان بنظرة كما راح يرنو العابد المتخشع

كذلك تشبيه نظرة القوم لليتيم في برودها بالثلج ، ونظرة حسرات اليتيم بالجمر:-[٣]

فكان ابتسام القوم كالثلج قارسا لدى حسرات منه كالجمر تلسع

كذلك تصويره لأثر البرد في الأرملة المرضعة ، بلسع العقرب ، كما في قوله :- [٤]

تمشي بأطمارها والبرد يلسعها كأنها عقرب شالت زباناها

وغير ذلك من الصور التي جاءت طبيعية غير متكلفة ، كما في قوله :- [٥]

حتى غدا جسمها بالبرد مرتجفا كالغصن في الريح واصطكت ثناياها

وقوله:- [٦] **وأخرجت زفرات من جوانحها كالنار تصعد من أعماق أحشاها**

وقوله :- [٧] **وظلت لها أبكي بعين قريحة جرت من مآقيها عصارة عندم**

حيث استعار للدمع عصارة العندم ، تشبيها له به في حرارته وغزارته وشدة حمرته فكأنه يذرف بدلا من الدموع دما .

(١)ديوان الرصافي جـ١ صـ ٤٠ . (٢) السابق صـ ٦٠ . (٣) السابق صـ ٦٠ .
(٤) السابق صـ ٢٠٩ . (٥) السابق صـ ٢٠٩ . (٦) السابق صـ ٢٠٩ .
(٧) السابق صـ ٢١٠ .

٢ – الموسيقى

تتعلق الموسيقى بجوهر الشعر لما تحمله من قدرة خلاقة على التأثير عن طريق النغم والرنين، ولما لها من علاقة أكيدة بتجربة الشاعر ، وما تلقيه من إيحاءات وإشعاعات وأنغام تجعل منها وسيلة من أقوى الوسائل سلطانا على النفس ، وأعمقها تأثيرا فيها ٠

وقد عاصر "الرصافي" شوقيا ، وحافظا ، والزهاوي ، وهم من جيل الشعراء المحافظين الذي تمسك بالقديم ولم يرض عنه بديلا ، وحافظ على الموسيقى التقليدية المتمثلة في عمودية الوزن والالتزام بالبحور الخليلية دون خروج على قوانينها٠

الأوزان

كانت موسيقى الوزن عنده محل تقديس ، فالتزم بها ، وجعل الخروج عليها إلى ما عداها ضربا من الهزل والهذيان وكان مذهبه في شعره إعلائه لشأن الموسيقى وعشقه لجمال اللفظ ، وسهولته وطرافته ، وقد جاءت تجاربه الموسيقية مع الشعر الإنساني متناسبة مع البحور التامة ، ذات الأوزان الطويلة ، والتفعيلات المتعددة والمتكررة [١] وهذا يعكس شعورا متدفقا وانفعالا يتسم بالحرارة والحيوية ، حتى ليمكننا القول إن الشعر الإنساني هو شعر الأوزان الطويلة المتمثلة في بحور الطويل ، والبسيط والكامل ، ثم تأتي بعد ذلك بحور الوافر، والرجز ، والمديد ، ولكنها قلية إذا قيست بسابقتها

وقد لا حظنا أن بحر الطويل هو أكثر البحور شيوعا في الشعر الإنساني ، ولعل سر شيوعه أكثر من غيره يكمن في كثرة مقاطعه ووفرة أجزائه وما يتمتع به من إمكانيات تلائم عمق الإحساس ، وفيض الخاطر ؛ ولكونه بحرا يلتزمه الشاعر غالبا متى تطرق إلى تجربة أو معاناة يفرغ فيها ما يراه مناسبا للموقف الذي يلون العاطفة عنده [٢]

---

(١) يشتمل هذا البحر على مقياسين من المقاييس الثمانية وهما : فعولن مفاعيلن وهذان المقياسان يتكرران في البحر الطويل على صورة خاصة وترتيب خاص، فالشطر من البيت يشتمل على أربعة مقاييس ترتب كما يلي :-

فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن ، ومثلها في الشطر الثاني ٠ ينظر موسيقى الشعر د / إبراهين أنيس صـ ٥٩ ، ٦٠ ٠

(٢) ينظر من قيثارة الشعر العربي د / فتحي أبو عيسى صـ ١٨٤ دار المعارف القاهرة ١٩٨٠ م ٠

فقد جاءت قصائده (أم اليتيم) والتي مطلعها :- [١]

رمت مسمعي ليلا بأنة مؤلم فألقت فؤادي بين أنياب ضيغم

وقصيدته (السجن في بغداد) والتي مطلعها :- [٢]

سكنا ولم يسكن حراك التبدد مواطن فيها اليوم أيمن من غد

وقصيدته (اليتيم في العيد) والتي مطلعها :- [٣]

أطل صباح العيد في الشرق يسمع ضجيجا به الأفراح تمضي وترجع

وقصيدته (الأرملة المرضعة)[٤] و(خواطر شاعر)[٥] و(في سبيل حرية الفكر)[٦] و(بني الأرض)[٧] و(المهجورة)[٨] وغير ذلك من القصائد على وزن الطويل حتى إننا لنراه يفتتح ديوانه في باب الاجتماعيات بقصيدة (في مشهد الكائنات) على هذا الوزن والتي يقول في مطلعها :- [٩]

جمالك يا وجه الفضاء عجيب وصدرك لا يأبى الانتهاء رحيب

كما استخدم وزن البسيط في كثير من القصائد منها قصيدته (الأرملة المرضعة)والتي مطلعها :-[١٠]

لقيتها ليتني ما كنت ألقاها تمشي وقد أثقل الإملاق ممشاها

وقصيدته (من ويلات الحروب) والتي مطلعها :- [١١]

مرت تقول ألا يارب خذ روحي كي أستريح بموتي من تباريحي

وقصيدته (وقفة عند شراغان) والتي مطلعها :- [١٢]

أصبحت أعذل نوابا وأعيانا عذلا كنار تلظت في شراغانا

وقصيدته (أم الطفل في مشهد الحريق) والتي مطلعها :- [١٣]

ما للديار تراءى وهي أطلال هل خف بالقوم عنها اليوم ترحال ؟

---

(١) ديوان الرصافي جـ ١ صـ ٣٩ ٠ (٢) السابق صـ ٤٢ ٠ (٣) السابق صـ ٥٨ ٠
(٤) السابق صـ ٢٠٨ ٠ (٥) السابق صـ ١٨٤ ٠ (٦) السابق صـ ١٠ ٠
(٧) السابق صـ ١٤٣ ٠ (٨) السابق ج٢ صـ٣٥٤ ٠ (٩) السابق ج ١ صـ ٢ ٠
(١٠) السابق صـ٢٠٨ ٠ (١١) السبق صـ ٢١٥ ٠
(١٢) السابق صـ ٢٩٠ ٠ (١٣) السابق صـ ٢٩٢ ٠

وغيرها من القصائد التي تدل على تمسكه بالموسيقى التقليدية المتمثلة في عمودية الوزن أولا ، وتدل ثانيا على أنه لم يكن ينظم الشعر دون الوقوف على دقائقه والشعور العميق بخصائصه وموسيقاه ، بل نظن أنه كان يعمد إليه عمدا ويقصد إليه قصدا .

القافية

أما القافية في الشعر الإنساني فتقوم على التآلف لا على الإكراه وعلى التناسب لا على التنافر، وهي ملكة شعرية خاصة تميز بها وارتفعت بروح الشعر عنده ، ففي النماذج السابقة نجد أنه ليس بين كلمات القافية كلمة مكرهة في موضعها ، أو مجلوبة لأجل الروي أو غير ذلك من العيوب التي تخل بالقافية وتنتقص منها ، بل جاءت في معظمها نهاية طبيعية للأبيات ، وكان صاحب ذوق متميز في اختيار رويه خاصة ؛ لأن اختيار الروي المناسب لغرض القصيدة وموضوعها يرجع في المقام الأول إلى ذوق الشاعر وطبعه .

ومن الخصائص الموسيقية التي اعتمد عليها إلى جانب اعتماده على الوزن المطرد والقافية الموحدة اعتماده على القصائد ذات القالب المقطعي التي تختلف قوافيها من مقطع إلى آخر وهي من الألوان التي تسير في طريق التجديد والتي استعذبها الشعراء واستحسنوا موسيقاها ونظموا فيها أغراضا لم يطرقها القدماء [1] وهذا النوع اتخذ عنده صورتين :-

الأولى : المخمس الذي يتألف من مقاطع كل مقطع مكون من خمس شطرات تتحد منها أربع شطرات في القافية وتختم بشطرة خامسة تلتزم في كل الخواتيم ومتفقة مع قافية الفقرة الأولى كما في قصيدته (الفقر والسقام) والتي يقول فيها :- [2]

أيها الأغنياء كم قد ظلمتم نعم الله حيث ما إن رحمتم
سهر البائسون جوعا ونمتم بهناء من بعد ما قد طعمتم
من طعام منوع وشراب
كم بذلتم أموالكم في الملاهي وركبتم بها متون السفاه
وبخلتم منها بحق الإله أيها الموسرون بعض انتباه
أفتدرون أنكم في تباب

(١) ينظر موسيقى الشعر د / إبراهيم أنيس صـ ٣٠٥ .
(٢) ديوان الرصافي جـ ١ صـ ١٠٢ .

وكما في قصيدته (أيتها الكعاب) [١]

الثانية : المخمس الذي يتكون من مقاطع كل مقطع مكون من خمس شطرات ثلاثة أشطر الأولى تتغير من مقطع إلى آخر والشطران اللذان يختم بهما المقطع على قافية ملتزمة في القصيدة كلها ، كما في قصيدته (الأرض) والتي يقول فيها :- [٢]

أرضنا كانت لظى مشتعلة مذ من الشمس غدت منفصلة
لم تزل في دورها منتقلة كتلة فيها اللهيب احتدما
وهي ترمي الفضاء بالشرر
كان فج النار فيها مصعدا وهجا في الجو عنها مبعدا
حيث لا يمكن أن ينعقدا فوقها منه بخار ديما
هاطلات بالحيا المنهمر

وهناك ألوان أخرى من **الموسيقى الداخلية** التي تكشف عن قدرة الشاعر على منح قصيدته ثراء متجددا ونغما أخاذا إذ تتضمن ألوانا من النغم الداخلي المنبعث من استخدام ألفاظ وعبارات ذات رنين موسيقي خاص ، وهي مقدرة بيانية وإلهام شاعري يعد من أمارات النبوغ والتفوق من هذه الموسيقى استخدام الألفاظ المتناغمة كما في قوله :- [٣]

ورحت أعاطيه الحنان بنظرة كما راح يرنو العابد المتخشع

وقوله :- [٤] **وأفتح طرفي مشبعا بتعطف فيرتد طرفي وهو بالحزن مشبع**

وقوله :- [٥] **إذا بعثت لي أنة عن توجع بعثت لها أنة عن ترحم**

وقوله :- [٦] **كأني أرى البنيان منه مهدما وما هو بالخاوي ولا المتهدم**

فهذا التناغم الملحوظ في قوله : ورحت كما راح ، وأفتح طرفي مشبعا فيرتد طرفي مشبع إذا بعثت لي أنة بعثت لها أنة ، عن توجع وعن ترحم ، ومهدما والمتهدم كما نجد المجانسة في حديثه عن اليتيم في العيد في قوله :- [٧]

يرى حوله الكاسين من حيث لم يجد على البَرد من بُرد به يتلفع

(١) ديوان الرصافي جـ١ صـ ٢٥٣ . (٢) السابق جـ ١ صـ ٢٨ . (٣) السابق صـ ٦١ .
(٤) السابق صـ ٦١ . (٥) السابق صـ ٣٩ . (٦) السابق صـ ٣٩ . (٧) السابق صـ ٦٠ .

على البَرد من بُرد ، كما نرى حسن التقسيم في حديثه عن الأرملة المرضعة :- [١]

الموت أفجعها والفقر أوجعها والهم أنحلها والغم أضناها

إلى غير ذلك من ألوان الموسيقى والنغم ، والتي تجلت في ألوان البديع وكان أبرزها الطباق الذي يعد من أوجز الحديث وأصدقه وأبعده في الدلالة على المعنى المراد وهو يؤلف بلفظيه لحنا واحدا فيثير العواطف ويشد الانتباه [٢] وقد أكثر منه بغرض إبراز المعاني وتعميق الإحساس بها بسبب التقابل اللفظي بين المتضادين ، نلمس ذلك في قوله :- [٣]

مات الذي كان يحميها ويسعدها فالدهر من بعده بالفقر أشقاها

حيث طابق بين السعادة والشقاء ، وقوله في قصيدته (أم اليتيم) :- [٤]

فأصبحت ظمآن الجفون إلى الكرى وإن كنت ريان الحشا من تألمي

حيث طابق بين الظمأ بمعنى العطش والري ، وقوله في شكوى الاحتلال وأعوانه :- [٥]

وهم سلبوا أرض العراق سمينها ولم يتركوا للقوم فيها سوى الغث

حيث طابق بين السمين والغث ، وقوله في إذلال المترفين للضعفاء :- [٦]

تأملت في الأحياء طرا فلم أجد بهم باسما إلا على ألف واجم

ورب سعيد واحد تم سعده بألف شقي في المعيشة راغم

فقد طابق في البيتين بين باسم بمعنى مسرور ، وواجم بمعنى عابس ، وبين سعيد وشقي ، إلى غير ذلك من الألفاظ المتقابلة المتضادة التي أشاعت في رؤاه الإنسانية نغما متنوعا يحرك الشعور ويوقظ العقل ويثير العاطفة ويعين على وضوح الفكرة .

فضلا عن ظاهرة التقفية التي هي موافقة العروض للضرب في الروي ، وهي من أكثر ألوان الموسيقى الداخلية شيوعا عند "الرصافي "وقيمتها الفنية تتمثل في جذب الانتباه وتحريك المشاعر ، وقد شاعت في سائر مطالع قصائده ومرت بنا أمثلة كثيرة لذلك .

---

(١) ديوان الرصافي جـ ١ صـ ٢٠٨ . (٢) ينظر البناء الفني للصورة الأدبية عند ابن الرومي د / علي صبح صـ ٣٢٢ .

(٣) ديوان الرصافي جـ ١ صـ ٢٠٠ . (٤) السابق صـ ٣٩ . (٥) السابق جـ ٢ صـ ٤٧٠ .

(٦) السابق جـ١ صـ ١٤٣ .

الخاتمة

وبعد هذه الإطلالة السريعة على الجانب الإنساني عند "الرصافي" نستطيع أن نستخلص عدة أمور منها :-

* أن" الرصافي" كان شاعرا شديد الإحساس ، عميق الشعور ، وكان أبرع مصور لبؤس الأمة ومآسيها ، وأصدق مترجم عن آلام الشعب وأحزانه .

* كان الميدان الإنساني من الميادين البارزة التي صال فيها "الرصافي" وجال فصور مشاهد البؤس المستمدة من صميم الواقع الذي عاشه أبناء مجتمعه .

* عالج " الرصافي" كثيرا من الموضوعات التي لم تكن تخطر ببال كثير من الشعراء فأسمع الأمة أنغاما شجية عن "أم اليتيم" "والمطلقة" "والمهجورة" وغيرها من الموضوعات التي كشف من خلالها عن صور الظلم الاجتماعي.

* لم تكن إنسانيته إنسانية سلبية يعرض من خلالها للعيوب والآفات الاجتماعية فحسب وإنما كان يهدف لغاية يسعى لتحقيقها من خلال كل جانب إنساني، يدعو إليه .

* لم يتوقف "الرصافي" في الحديث عن أمته الكبيرة بلاد العروبة ، كما لم يتوقف في الحديث عن العراق حتى في القصائد التي هيمن فيها الجانب الاجتماعي إذ لا يلبث حديث الوطن والأمة يطفو على السطح في كل مناسبة من المناسبات .

* بدت الرقة والسهولة على معظم شعره الإنساني ، واعتمد على طريقة خاصة تقوم على أن الألفاظ خادمة للمعاني ، وما الأسلوب أو الألفاظ إلا وسيلة للتعبير فحسب .

* التزم "الرصافي" البناء الفني للقصيدة العربية في شعره الإنساني فحافظ على الوزن والقافية ، وحرص على روح القصيدة العربية ، وعلى الطابع العربي الأصيل والتزم وحدة الموضوع مع أنه كان مجددا في كثير من موضوعاته ومبتكرا لكثير من المعاني ومن ثم جاء شعره ممثلا لبيئته وجيله أصدق تمثيل .

أهم المصادر والمراجع

١– آفاق الشعر العربي الحديث والمعاصر د / عز الدين إسماعيل دار غريب للطباعة والتوزيع٢٠٠٠م
٢– أدب المهجريين بين أصالة الشرق وفكر الغرب د / نظمي عبد البديع دار الفكر العربي ١٩٧٦م ٠
٣– الأعلام لخير الدين الزركلي جـ ٧ ط ٨ دار العلم للملايين بيروت لبنان ١٩٨٩ م .
٤– البناء الفني للصورة الأدبية عند ابن الرومي د / علي صبح مطبعة الأمانة القاهرة ١٤٩٦ هـ ١٩٧٧ م٠
٥– بناء القصيدة في النقد العربي القديم في ضوء النقد الحديث د / يوسف حسين بكار دار الأندلس للطباعة د / ت ٠
٦– التجديد في شعر المهجر د / محمد مصطفي هدارة ط ١دار الفكر العربي ١٩٥٧ م
٧ –تطور القصيدة الغنائية في الشعر العربي الحديث د / حسن الكبير دار الفكر العربي ١٩٧٨ م
٨– دائرة المعارف الإسلامية أصدرها بالعربية ا / أحمد الشنتناوي ، ا / إبراهيم زكي خورشيد جـ ٢ طبع لجنة التأليف والترجمة ١٩٣٣ م ٠
٩– دراسات في الأدب العربي والتاريخ ا / محمد عبد الغني حسن الدار القومية للطباعة والنشر القاهرة د/ ت
١٠– دراسات في الأدب العربي الحديث ومدارسه د محمد عبد المنعم خفاجي ط ١ دار الجيل بيروت ١٤١٢ هـ ١٩٩٢ م ٠
١١– دراسات في الشعر العربي المعاصر د شوقي ضيف ط ٨ طبع دار المعارف د / ت
١٢– دروس في تاريخ آداب اللغة العربية معروف الرصافي ط ١مطبعة دار السلام بغداد ١٩٢٨
١٣ – ديوان أوس بن حجر شرح د / محمد يوسف نجم ط ٣ دار صادر بيروت ١٩٧٩
١٤– ديوان الرصافي شرح وتصحيح د / مصطفى السقا ط ٥الهيئة العامة لقصور الثقافة د / ت
١٥ – الرصافي يروي سيرة حياته د / يوسف عز الدين ط ١ دار المدى للثقافة والنشر ٢٠٠٤ م
١٦– الشعر العراقي أهدافه وخصائصه في القرن التاسع عشر د / يوسف عز الدين الدار القومية للطباعة والنشر ١٣٨٥ هـ ٦٥ ١٩م
١٧ – غايات الأدب في مجتمعنا المعاصر د / محمود السمان جـ ٢ طبع الجهاز المركزي للكتب الجامعية والوسائل التعليمية ١٩٨١ م ٠
١٨ – قضايا النقد الأدبي د / بدوي طبانة دار المريخ للطباعة الرياض ١٤٠٤ هـ ١٩٨٤ م
١٩ – مدارس الشعر العربي في العصر الحديث د / صلاح الدين عبد التواب دار الكتاب العربي٠
٢٠– مجموع أشعار العرب ، الأصمعيات ج ١ تحقيق ا / أحمد محمد شاكر وا / عبد السلام هارون طبع دار المعارف القاهرة ١٩٧٩ م
٢١– معروف الرصافي بين الأصالة والمعاصرة د / عبد الوارث الحداد مطبعة السعادة
٢٢– معروف االرصافي حياته وبيئته وشعره د / بدوي طبانة ط ٢ مكتبة الأنجلو المصرية ١٣٧٦ هـ ١٩٥٧ م ٠
٢٣– معروف الرصافي ا / رءوف الواعظ دار الكتاب العربي القاهرة د / ت ٠
٢٤ معروف الرصافي شاعر الحرية والعروبة د / الحسيني عبد المجيد هاشم الهيئة المصرية العامة للكتاب د / ت ٠
٢٥ – الموجز في الأدب العربي وتاريخه ا / حنا الفاخوري جـ ٤ دار الجيل بيروت د/ت
٢٦ – موسيقى الشعر د / إبراهيم أنيس ط ٥ مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧٨ م ٠